إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾

التفسير: أي لن تكون لهؤلاء المؤمنين العاملين الصالحات نتيجة إيمانهم شوكةٌ في الظاهر، إلا أن أعمالهم الصالحة هي التي ستهيئ السلام للعالم شيئًا فشيئًا.

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

يُحَلَّون: حلَّى المرأةَ: أَلبَسَها حَلْيًا (الأقرب).

ثيابًا: الثياب جمعُ الثوب وهو اللباس من كَتّانٍ أو قُطْنٍ وصوفٍ خَزٍّ أو فِراءٍ (الأقرب).

سُنْدُس: السُنْدُس: ضربٌ من نسيج البَزِّ أو من رقيقِ الديباج. وفي الكليات: هو نَمارِقُ من حريرٍ (الأقرب).

إستبرق: الإستبرق: غليظُ الديباجِ معرَّبٌ (الأقرب).

الأَرائك: جمعُ الأريكةِ وهو سرير منجَّدٌ مزيَّنٌ في قُبّةٍ أو بيتٍ (الأقرب).

التفسير: ربَّ معترضٍ يقول هنا: لقد وُعدوا بأسورةٍ من ذهب مع أن لبسها حرام للرجال؟ والجواب أنه إذا كان الحديث هنا عن نعم هذه الدنيا فالمراد من لبسهم الأسورة الذهبية أنهم سيُعطَون الحكمَ والمُلك، لأن الملوك في القديم كانوا يلبَسون الأسورة الذهبية. فالآية نبأ بأن الله تعالى سيجعل المسلمين ملوك العالم. أما إذا كان الحديث عن نعم الآخرة فبما أن كل نعمة فيها روحانية، فليس المراد أنهم سيُلبَسون هنالك أَسْوِرةً من ذهب، وإنما هو إشارة إلى ما سيتمتعون به في الآخرة من تشريف وتكريم.

أما قولـــه تعالى ﴿مِن سُنْدُسٍ وإِستبرقٍ﴾ فيعني أن الإنسان كما يشعر بالراحة واللذة بلبس الحرير في هذه الدنيا، كذلك سيُمنَح هؤلاء في الآخرة لباسًا روحانيًّا يُشعرهم باللذة والراحة.

وقـــد يكـــون المراد أن هذه الثياب الحريرية ستعطى لمن يلبسها؛ أي النساءُ، وذلك كما ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ بعَث إلى عمر بحلَّة حريرٍ، فجـــاءه عمـــر يحملها وقال: يا رسول الله، أعطيتَنيها ولبسُ الحرير حرام على الرجال؟ فقال النبي ﷺ: يمكن أن تكسوها امرأتَك (مسلم: اللباس).

أمـــا قولـــه تعالى ﴿نِعْمَ الثوابُ﴾ فيعني أن النعم التي سينالها المؤمنون الصادقون بالقرآن الكريم لن تؤدي بهم إلى الهلاك، بل ستبعث على السلام والراحة.

أمـــا قوله تعالى ﴿وحسُنتْ مرتفَقًا﴾ فهو إيماءة إلى أن الصداقات التي ستنشأ وفـــق تعلـــيم القرآن الكريم لن تؤدي إلى الحروب بل إلى السلام؛ لأن أساسها النصح والإخلاص، لا المطامع الشخصية.

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣

شرح الكلمات:

مـــثلاً: المَـــثَل: الشِّبْهُ؛ النظيرُ؛ الصفةُ؛ الحُجّةُ، يقال: أقام لـــه مثلاً أي حجّةً؛ الحديثُ؛ القولُ السائرُ؛ العبرةُ (الأقرب). وضرَب لـــه مثلاً: وصَفه وقاله وبيّنه.

جَنّـــتين: مثنى الجَنّة. وأصلُ الجَنِّ سترُ الشيءِ. يقال: جَنَّه الليلُ: ستَره. والجنّةُ: كلُّ بستان ذي شجرٍ يستُر بأشجاره الأرضَ. وقد تسمَّى الأشجارُ الساترةُ جَنّةً. وسُـــمّيت الجـــنّةُ إما تشبيهًا بالجنّة في الأرض وإنْ كان بينهما بونٌ، وإما لستْرِه

تعـــالى نعمَها عنا المشارَ إليها بقوله تعالى ﴿فلا تعلَم نفسٌ ما أُخفيَ لهم مِن قُرّةِ أَعين﴾ (المفردات).

حَفَفْنا: حَفَّه القومُ وبه وحوالَيه: أحدقوا به وأطافوا واستداروا (الأقرب).

لم تَظلِمْ: ظلَم فلانًا حَقَّه: نقَصه إياه، ومنه ﴿ولم تَظلِمْ منه شيئًا﴾ أي لم تنقُصْ (الأقرب).

التفســـير: هناك فئة من المفسرين ترى أن هذه الآية تتحدث عن حادث معين، بيـــنما ترى فئة أخرى منهم أنها تحتوي على مَثَلٍ فحسب. ومن الفئة الأولى من يقـــول إن الرجلين المذكورين في الآية كانا من اليهود، بينما يقول البعض منهم إنهما كانا من العرب (القرطبي وفتح البيان).

ولكن الحق أن الذي يملك بستانين من الأرض لا يبلغ من الأهمية بحيث يستحق الذكرَ في التاريخ، اللهم إلا إذا سلّمنا بأحد الأمرين: الأول أنه لم يتفوه أحد قط في تاريخ الإنسانية كله بكلمات الزهو والتفاخر إلا ذلك الشخص؛ والثاني أنه لم يكـــن في الدنـــيا حينـــئذ أشـــجار إلا هذان البستانان اللذان كانا ملكًا لذلك الشخص؛ ولذلك حفظ لنا التاريخ هذه الحادثة!

وعندي أن تفاصيل هذا المثل تؤكد لنا أنه يتضمن رسالة إلهية هامة لنا، وإلا لم يكن ثمة داع لذكره في القرآن الكريم.

وعـــندي، أنـــنا إذا وجدنا في الكتب السماوية أحد الأمثلة الذي ليس غايته الفصـــاحة والبلاغة، بل يشير إلى موضوع عميق الغور، فمن الأفضل أن نستعين بعلم تعبير الرؤيا للوصول إلى حقيقته بدلاً من التفكير فيه بعقلية مادية؛ ذلك أن الـــرؤى هـــي أيضًا نوع من لغة الأمثال التي يستخدمها الله تعالى، ولا بد من التشابُه بين مثلَين منبعهما واحد وهو الله تعالى.

ممـــا لا شك فيه أنه يمكننا أن نأخذ البستان بمعنى المال والثروة نظرًا إلى الدنيا، كما يمكن تفسير النخل بمعنى الحماية، لأن الشجر يُستخدم كسياج يحدد أرضَ

الزرّاع على ما يرام. لا جرم أنه يمكننا أن نقوم بهذا التأويل اعتمادًا على عقولنا، ولكـــن لم لا نستعين بعلم تعبير الرؤيا بهذا الصدد، ثم نتدبر في القرآن لنرى هل هو يؤيد المعنى الذي توصلنا إليه على ضوء علم التعبير أم لا؟

يقـــول علماء تعبير الرؤيا: "ربما دلّ البستانُ على الزوجة والولد والمال وطِيبِ العـــيش وزوال الهمـــوم، وربما دلّ على دار السلطان الجامعة للجيوش والجنود" (تعطير الأنام: كلمة البستان).

أمـــا العنـــب فهو في المنام رزقٌ حسنٌ. والعنبُ رزقٌ دائم واسعٌ مدّخرٌ. ومَن أمسَكَ عنقودًا نال مالاً مجموعًا من امرأة (المرجع السابق، كلمة عنب).

أما النخل فقد ورد فيه: "مَن مَلَكَ نخلاً كثيرًا فإنه يتولى على رجالٍ بقدرِ ذلك، وإنْ كان تاجرًا ازدادت تجارتُه" (المرجع السابق كلمة نخل).

وأما الثمر فهو في المنام "كرامةٌ جديدة طريّةٌ". (المرجع السابق كلمة ثمر).

وأما الزرع فورد فيه: "مَن رأى أنه قد زرَع في أرض... فهو للسلطان سَعَةٌ في مملكته... والزرعُ يدلّ على العمل" (المرجع السابق كلمة زرع).

أمـــا النهر فهو في المنام رجل جليل (المرجع السابق كلمة نهر). وكذلك ورد أنه إنْ رأى أن نهرًا يجري من بيته فإنه يأمر بالمعروف وينتفع الناس منه.

إذًا فالمراد من قوله تعالى ﴿واضْرِبْ لهم مثلاً رجُلَين جعَلنا لأحدهما جنّتَين﴾ أنه تعالى أعطى أحدَ الرجُلين المالَ والأولادَ. وبما أن العنب رمز للخلود فكلمة ﴿من أعـــناب﴾ إشـــارة إلى أن مال وأولاد هذا الرجل سيزدهران طويلاً، وهذا المعنى يؤكده قولُ هذا الشخص بعد قليل ﴿أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُّ نَفرًا﴾، مع أنه لم يجر من قبل أي ذكر لتعداد ماله وأولاده.

أما قولـــه تعالى ﴿وحفَفناهما بنخل﴾ فإن النخل، كما ذكَرت آنفًا، يعني أتباع الرجل الذين يتولى عليهم؛ فالمراد من إحاطة البستانين من أعناب بنخل أنه كان يحمي مالَه وأولادَه ومُلكَه برجاله وجنوده.

أمـــا قوله تعالى ﴿وجعَلْنا بينهما زرعًا﴾ فالزرع يعني العمل، فالمراد من وجود العمـــل بـــين البســـتانين أن هناك مملكةً محروسة بالجيوش على الجانب الواحد، ومملكـــةً أخرى على الجانب الآخر محروسة بالجنود أيضًا، وبين المملكتين ضيعة غير محروسة ليست بذات شأن.

ثم يقـــول الله تعـــالى ﴿كلـــتا الجنتين آتَتْ أُكُلَها ولم تظلِمْ منه شيئًا﴾، وهذه الكلمات أيضًا تدل على أن البستان هنا تمثيلي، وليس البستان المعروف؛ ذلك أن الأمـــر الطبيعي عن البساتين هو أن ثمارها لا تكون كثيرة في كل مرة، بل تكثر ثمارها في عام وتنقص في عام غالبًا.

وثمة أمر آخر جدير بالملاحظة هنا: إن الآية تتحدث عن بستانين، إلا أنه يمكن اعتـــبارهما بستانًا واحدًا من جهة، كما يمكن اعتبارهما بستانين من جهة أخرى. ذلـــك أن القـــرآن قد استخدم لهما ضمير المفرد حيث قال ﴿آتتْ أكلها﴾ بدل (آتتا أكلهما)، ثم قال ﴿ولم تظلِمْ﴾ بدل (ولم تظلما). وهذا يعني أنه في الحقيقة بستان واحد، أو هناك جزءان لبستان واحد، وإن كان في الظاهر بستانان.

لا شـــك أن إيراد ضمير "كلتا" مفردَ اللفظِ جائز، ولكن لا بد من صيغة المثنى عند إيراد ضميره معنًى، فقد كتب العلامة البيضاوي: "وفي الحاشية السعدية فإنه اسم مفرد اللفظ عند البصريين ومثنَّى المعنى؛ ومثنًّى لفظًا ومعنًى عند البغداديين (تفسير البيضاوي).*

وورد في "القنوى على البيضاوي" أن الحريري قال في درة الغواص: "يقولون: كلا الرجلين خرَجا، وكلتا المرأتين حضَرتا." (درة الغوّاص وشرحها، تحقيق عبد الحفيظ فرغلي، دار الجيل بيروت، الإخبار عن كِلا وكلتا ص ٣٩٨)

* لم نجـــد هذه العبارة في نُسخ البيضاوي المتوفرة لدينا، غير أنه ورد في حاشية الشهاب: "لأنه مفـــرد اللفـــظ مثنى المعنى على المشهور، وقد قيل إنه مثنى حقيقةً على ما فُصِّل في كتب النحو" (حاشـــية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، الجزء السادس، المكتبة الإسلامية، ديار بكر، تركيا)

إذًا فالبغداديون من أئمة اللغة يرون ضرورة إيراد صيغة المثنى (آتتا)، والحريري أيضًا يرجّح ذلك؛ مما يؤكد أن إيراد صيغة المثنى جائز يقينًا. فما أقوله هو أن إيراد صيغة المثنى هنا كان هو الأنسب أو الجائز على الأقل، ولكن القرآن الكريم فضّل الطريق الآخر على هذا الطريق الأنسب لفظًا، وهذا لا يخلو من حكمة نظرًا إلى الأساليب القرآنية المسلم بها. والقرآن زاخر بمثل هذه الأمثلة التي تؤكد أنه يراعي بعض الحكم والأغراض المعنوية حتى لدى اختيار الكلمات والضمائر.

وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

ثمر: الثمر: حملُ الشجر؛ النسلُ والولدُ، والواحدة ثمرةٌ. والثمرة من اللسان: طَرفُه وعَذَبتُه. وثمرةُ القلب: المودّةُ؛ خلوصُ العهد (الأقرب).

يحاورُ: حاوَرَه محاورةً: جاوَبَ وراجعَه الكلامَ (الأقرب).

أَعَزُّ: اسم تفضيل من عَزَّه يعُزُّ عِزًّا: قوّاه؛ غلَبه. وعَزَّ يعِزُّ عزًّا: صار عزيزًا؛ قَوِيَ بعد ذلّة؛ ضَعُفَ؛ ضِدٌّ (الأقرب). قوله: "ضدٌّ" يعني أن هذه الكلمة من الأضداد، فتعطي معنى إيجابيًّا في بعض الأحيان وسلبيًّا في أحيان أخرى.

نَفَرًا: النَفَرُ: الناسُ كلهم؛ والنفرُ من ثلاثة إلى عشرة، وقيل إلى سبعةٍ، من الرجال (الأقرب).

التفسير: قوله تعالى ﴿وكان له ثمرٌ﴾ يعني كانت جهود هذا الشخص تأتي بنتائج مرضية مما حداه ليقول لصاحبه: أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ منك أعوانًا.

أبيّن لكم الآن تأويل هذا المثل. في مستهل هذه السورة أخبر الله تعالى أن رسوله ﷺ قد بلّغ رسالات الله أهلَ مكة، وسيبلّغها اليهودَ أيضًا، كما سيوقظ

بها النصارى. ثم تطرق ﷻ إلى بداية تاريخ الأمة المسيحية وأخبر أن هؤلاء تحملوا أشد الأذى والتعذيب في سبيل عقيدة التوحيد في أول أمرهم، ولكنهم صاروا فيما بعد مشركين وانشغلوا بالدنيا. أما الآن فأشار الله تعالى في هذا المثل إلى النزاع الذي قدّره بين المسلمين والنصارى. فأصحاب البستان هم النصارى. وقد ذكر القرآن أنه بستان العنب، ذلك أن المسيح عليه السلام نفسه قد شبّه الأمة المسيحية بالكَرْم. كما أن هناك تشابهًا بين المثل القرآني وبين المثال الذي ذكره المسيح عليه السلام حيث ورد: "إنسانٌ غرَس كَرْمًا وأحاطه بسياجٍ، وحفَر حوضَ معصرةٍ وبنى برجًا، وسلَّمه إلى كرّامين وسافرَ. ثم أرسل إلى الكرّامين في الوقت عبدًا ليأخذ من الكرّامين من ثمر الكرمِ؛ فأخذوه وجلَدوه وأرسلوه فارغًا. ثم أرسل إليهم أيضًا عبدًا آخرَ، فرجَموه وشجّوه وأرسلوه مُهانًا. ثم أرسل أيضًا آخر، فقتلوه. ثم آخَرين كثيرين، فجلَدوا منهم بعضًا وقتلوا بعضًا. فإذْ كان له أيضًا ابنٌ واحدٌ حبيبٌ إليه أرسله أيضًا إليهم أخيرًا قائلاً: إنهم يهابون ابني. ولكن أولئك الكرّامين قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث، هلُمُّوا نقتُلْه فيكون لنا الميراث. فأخذوه وقتلوه وأخرجوه خارجَ الكَرْمِ. فماذا يفعل صاحبُ الكَرْمِ؟ يأتي ويُهلِكُ الكرّامين، ويعطي الكَرْمَ إلى آخرين. أما قرَأتم هذا المكتوبَ: الحَجَرُ الذي رفَضه البنّاءون هو قد صار رأسَ الزاوية" (مرقس ١٢: ١-١٠).

في هذا التمثيل شبه المسيح عليه السلام الديانات المختلفة بالكَرْم، وأخبر أن مالكَ الكرمِ هو الله تعالى. والتفصيل الذي ذكره عن هذا البستان هو نفس التفصيل المذكور في القرآن أي أن في البستان الكَرْمَ وحوله السياج. والفرق الوحيد أن القرآن قد ذكر أمرًا إضافيًّا أعني اسم الشجر الذي يحيط البستانَ كسياج.

وباختصار قد شبه المسيح عليه السلام في مثاله هذا أممَ الأنبياء بالبستان، وشبه العلماءَ المسؤولين عن توعية أفرادها والملوكَ بالبستانيين، وهذا هو المعنى الذي ذكره القرآن. فالبستان هو المسيحية، وأما العنب فيرمز إلى ما يتمتع به أهلُها من كثرة

المال والثروة والأولاد، وأما النخل فإشارة إلى اعتماد المسيحية في زمن ازدهارها على الجيوش، واتخاذ تدابير محكمة لحمايتها.

وأما السبب في ذكر البستان وكأنه بستان واحد من جهة وبستانان من جهة أخرى فهو أن للمسيحية خصوصية تميزها عن باقي الأمم، وهي أن ازدهارها تمّ في فترتين مختلفتين؛ كانت أُولاهما قبل ظهور الإسلام، وثانيتهما بدأت بعد ظهور الإسلام بثلاثة قرون، واكتملت في سبعة قرون أي في القرن السابع عشر الميلادي. أما فيما بين هاتين الفترتين فكانت المسيحية تشبه زرعًا يهدِّده خطر أن تدوسه الدواب أو تقتلعه. وبين هاتين الفترتين – اللتين تشبهان بُستانَين – فجّر الله نهرًا وهو نهر دين الإسلام الذي فصل بين هذين البستانين، وقد خلق الله تعالى بين هاتين الفترتين إنسانًا جليل الشأن ﷺ أقام حركة نشيطة للأمر بالمعروف.

ثم أخبر الله تعالى أن صاحب البستانين – أي زعماءُ المسيحية – سيعيّرون أهلَ الإسلام بضعفهم ويقولون: لا قِبل لكم بنا، فنحن أصحاب المُلك العظيم في الفترتين. ذلك أن رقيهم في الفترة الثانية سيكون رقيًّا غير عادي، فسيعتزّون به خاصة لأنه في تلك الفترة سيقع الصِدام بينهم وبين المسلمين.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

تَبيد: مِن بادَ يَبيد بُيودًا: هلَك (الأقرب).

التفسير: يبين الله تعالى إنهم سيتباهون بمُلكهم وقوتهم كثيرًا، ظانين أن لا زوال لمُلكهم، كما ستبلغ فيهم اللادينيةُ ذروتَها. هذا هو معنى قوله تعالى ﴿وهو ظالمٌ لنفسه﴾.

وجدير بالملاحظة أن الله تعالى قد ذكر هنا جنة واحدة مع أنهما جنتان! ذلك أن الأمة المسيحية، وإن كانت تفتخر بالفترة الأولى من تاريخها، إلا أنها ستزهو

حقـــيقةً برقيِّها الذي حققته في الفترة الثانية، وستعرضه أمام أهل الإسلام كدليل عـــلى صـــدقها؛ ومن أجل ذلك لم يذكر الله تعالى جنتين، بل ذكر جنة واحدة مستخدمًا صيغ المفرد.

وقـــد يكـــون الغرض من ذكر الجنة بدل الجنتين الإشارةَ إلى أن الجنتين جنة واحدة في الحقيقة. ذلك أن هذا الرقي كله إنما هو رقيُّ أمة واحدة وإن كان قد انقسم إلى جزأين نتيجةَ فاصل زمني. وهذا المعنى يؤيد موقفي الذي بينته من قبل بـــأن الله تعالى قد استخدم ضمير المفرد بعد "كلتا"، بالرغم من جواز استخدام ضمير المثنى، إشارةً إلى إمكانية اعتبار البستانين بستانًا واحدًا كذلك.

وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

أَظُـــنُّ: ظـــنَّ الشـــيءَ: علِمـــه؛ استيقنَه. وتأتي "ظنَّ" للدلالة على الرجحان (الأقرب). فقوله "ما أَظُنُّ" يعني: لا أوقن؛ لا أرى.

الساعة: راجِعْ شرح كلمات الآية رقم ٦٢ من سورة النحل.

منقلَـــبًا: مِنْ انقلَب أي انكبَّ؛ رجَع. المنقلَبُ: يكون مصدرًا؛ ويكون مكانًا (الأقرب).

التفسير: لقد أخبر الله تعالى هنا أن في هذه الأمة صنفينِ من الناس: صنف لن يؤمن بيوم القيامة، وإنما سيعتبر هذه الحياةَ الدنيا كل شيء؛ وصنف آخر سيؤمن بيوم القيامة، ولكنه يظن أن نِعم الآخرة حكرٌ على المسيحيين فحسب. وبالفعل هـــذا هو حال المسيحيين، حيث ترى فئة منهم أن لا حياة بعد الموت، وليست الجنة إلا الرقي القومي، وقد حازه المسيحيون وسيحوزونه؛ بينما تؤمن فئة منهم

بالبعـــث بعد الموت، ولكنها ترى أن المسيحيين سيدخلون الجنة لأن المسيح قد حمل خطاياهم؛ وليس للأمم الأخرى من يحمل عنهم خطاياهم، لذا فسيدخلون كلهم في الجحيم.

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾

شرح الكلمات:

نطفة: راجِعْ شرح كلمات الآية رقم ٥ من سورة النحل.

سوّاك: سوّى الشيءَ: جعَله سويًّا (الأقرب). فقوله تعالى ﴿سوّاك رجُلاً﴾يعني جعَلك إنسانًا مكتملاً.

التفســـير: لقـــد جاء الرد هنا على هؤلاء المتكبرين على لسان المسلمين باللغة التمثيلية، حيث قال هذا ناصحًا لصاحبه المتكبر: هل تُنكر وجودَ الله تعالى الذي خلَقـــك، ثم طوّرك من الحالة الأدنى إلى أن أوصلك إلى درجة التمام والكمال. وكأنه قال لـــه: إن حالتك العملية تدل على أنك منكر لذات البارئ تعالى، لأن الذي يؤمن بالله ﷻ حقيقةً لا يمكن أن يحمل أفكارًا كأفكارك.

مـــن الأساليب القرآنية العامة أنه حين ينهى عن الغرور والتباهي بما حققه من رقـــي يلفـــت نظـــر الإنسان إلى حالته البدائية. فمن ناحية ينصح الله تعالى هنا المســـلمين بعدم اليأس من الرقي بسبب ضعفهم، ويقول: ألم تكن الأمم المتقدمة الـــيوم مـــتخلفة ضعيفة في الماضي؛ ومن ناحية أخرى ينصح ﷻ المسيحيين ألا يغترّوا بضعف المسلمين. ألم يكن المسيحيون أنفسهم ضعفاءَ في أول أمرهم؟ ألم يكن خَلْقُ الإنسانِ نفسِه من تراب أوّلاً ثم من نطفة؟

هـــذا، وقوله تعالى ﴿وهو يحاوره﴾ يمثّل الإشارةَ إلى المباحثات التي ستتم بين هاتين الأمتين، وأن المسيحية ستقدّم قوّتَها وضعفَ المسلمين دليلاً على صدقها.

لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

التفسير: يقول هذا: لا أعتمد على تدابيري ولا أطمئن إليها، بل أضع ثقتي بالله وحده، فهو الذي يعطيني ما يعطيني. أنا خاوي الوفاض، وأنا فخور بفقري، لأنه يتسبب في ظهور آيات الله المتجددة دائمًا.

مـــا أروعَ وألطفَ قولَه ﴿ولا أُشرك بربي أحدًا﴾! يقول: لقد منَحكم الله المال ومـــع ذلك تشركون به ﷻ، ولكنه لم يعطني مال الدنيا ومع ذلك لا أشرك به أحدًا! وكأنه يقول: كنتُ بسبب فقري أكثرَ عرضةً للشك في وحدانية الله تعالى والوقـــوعِ في عقيدة الشرك، فأظن أنه ربما هناك إلهان؛ فإلهكم قد أحسن إليكم، ولكـــن إلهي لم يعطني ما أعطاكم؛ ومع ذلك لا أشرك بربي أحدًا، بل أؤمن بإله واحد.

وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾

التفســـير: بالرغم من تباهيه فإن صاحبه المسلِم يعطف عليه ويقول لـــه: لماذا تغترّ بقوتك؟ ليتك قلتَ حين دخلتَ البستان: إن الله وحده يملك القوة كلها!

عـــلمًا أن "مـــا" الواردة في قوله تعالى ﴿ما شاء الله﴾ موصولة، وهناك مبتدأ محذوف قبلها وهو "الأمر"، وتقدير الجملة كاملةً كالآتي: لِمَ لم تقل، إذ دخلتَ البستان: الأمر ما شاء الله؟ أي لا يكون إلا ما يريده الله ﷻ.

فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

حُسْبانًا: حسبه يحسب: عَدَّه. والحُسْبانُ: الحسابُ؛ العذابُ؛ البلاءُ والشرُّ؛ العَجاجُ؛ الجرادُ؛ النارُ (التاج).

صعيدًا: راجِعْ شرح كلمات الآية رقم ٨.

زَلَقًا: الزلقُ: موضعُ الزَّلَقِ لا يثبُت عليه قَدَمٌ. أرضٌ زَلَقٌ أي مَلْساءُ ليس بها شيء (الأقرب).

التفسير: ترى أن الحديث هنا أيضًا عن بستان واحد، حيث قال ﴿جنتك﴾ و لم يقل (جنتيك)، وقال ﴿عليها﴾ و لم يقل (عليهما)؛ ذلك أن أحد البستانَين المسيحيَّين كان قد دُمّر قبل ظهور الإسلام. لا شك أنهم يفتخرون به كما يفتخر الناس بآبائهم، ولكن تفاخرهم الحقيقي إنما هو ببستانهم الثاني المتواجد في الزمن الراهن؛ ومن أجل ذلك قال له صاحبه المسلم: إنْ رأيتَني أقلَّ منك مالاً وولدًا فلا تفتخر بذلك، إذ ليس بمستحيل على الله تعالى أن يؤتينِ خيرًا من جنتك، بل ويرسل على جنتك عذابًا من السماء فيحرقها، فلن تتمكن من تحقيق ادعاءاتك الواسعة عن امتلاك السلطة على الدوام.

وكلمةُ ﴿صعيدًا زَلَقًا﴾ تُشبه الكلمات التي وردت في مستهل هذه السورة عن الذين قالوا اتخذ الله ولدًا، والتي هي: ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيدًا جُرُزًا﴾؛ مما يوضح بجلاء أن هذا المثال يتحدث عن القوم الذين قالوا اتخذ اللهُ ولدًا.

أما قوله تعالى ﴿ويُرسِلَ عليها حُسْبانًا من السماء﴾ فاعلم أن كلمة ﴿من السماء﴾ هنا إشارة ربانية إلى أن التصدي لهؤلاء القوم بالتدابير الأرضية أي المادية أمرٌ مستحيل. وهذا ما أكده الحديث الشريف حيث ورد فيه عن يأجوج

ومـــأجوج اللذَيـــن هما رمزانِ للتقدم المسيحي المادي: "لا يَدانِ لأحد بقتالهم" (مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال).. أي ليس بوسع أحد قتالهم بقوته، بل إن الله تعالى سينـــزل من السماء لقتالهم.

أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

غـــورًا: غار الماءُ غورًا: ذهَب في الأرض وسَفَلَ فيها. الغَور: مصدرٌ، والغَور: الماءُ الغائرُ (الأقرب).

التفســـير: إن هذه الآية أيضًا توضح أن النهر في قوله تعالى ﴿وفجّرنا خلالَهما نَهَـــرًا﴾ لا يعني الماء المادي الذي يروي البستان المادي، ذلك أن الله تعالى يقول هـــنا ﴿أو يُصبِح ماؤُها غورًا﴾، مع أن مياه الأنهار لا تنبع من قعرها ولا تغيب فـــيها، بل تنصبّ فيها من الخارج؛ فثبت بذلك أن ماء تلك البساتين كان ماء آخـــر، وكـــان موجودًا فيها، وقد نبأ الله تعالى في القرآن عن غيابها، والمراد أن قـــدرات هذه الشعوب سوف تُدمَّر وتباد، وأن ملكاتهم العقلية التي كانت سببًا لعمـــران هذه البساتين ستنضب كالعيون التي يغور ماؤها، وبالتالي ستصبح هذه البساتين خرابًا يبابًا.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

أُحـــيطَ بثمره: أُحيطَ به: دنا هلاكُه. والسنةُ المجدبةُ تحيط بالأموال أي تُهلِكها (التاج). فالمراد من قوله تعالى ﴿وأُحيطَ بثمره﴾ أي دُمِّر ثمرُه.

فأصبح يقلِّب كَفَّيه: أي يتندم (الأقرب).

خاويــةٌ: اسم فاعل للمؤنث من خَوَتِ الدارُ تخوِي: أقوَتْ وسقَطتْ وتهدَّمتْ. وخوِيت الدارُ: خلَتْ من أهلها (الأقرب).

عــروش: جمعُ عرشٍ، والعرشُ من البيت: سقفُه (الأقرب). فقوله تعالى ﴿وهي خاويةٌ على عروشها﴾ يعني أنها متهدمة على سقوفها.

التفســير: قولــه تعالى ﴿وأُحيطَ بثمره﴾ يعني أن جهودهم لن تأتي بالنتائج المنشــودة كسابق الأيام، فسيقولون أسفًا وحسرةً: لم تعد الأسباب التي جمعناها بــبذل المــال الكثير ذاتَ جدوى. ذلك أن الشعوب التي تنفق الأموال من أجل الشــوكة الدنيوية تستولي الحسرة الشديدة على قلوبهم عندما يحيط بهم الدمار، لأن المباني التي يزهون بها لا يقدرون حينئذ حتى على إصلاحها. ولكن الأمم التي تــنفق أموالها للنهوض بأفرادها في المجالات العلمية والأخلاقية لا تتحسر على ما أنفقت أبدًا.

عــلمًا أن في قولــه تعــالى ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ إشارةً إلى هذه الشــعوب التي ستصاب بعقدة نفسية لبناء المباني الشامخة؛ ذلك أن تعبيرَ "وهي خاوية على عروشها" لا يستخدم عن البساتين. إذًا فإنهم سيقولون متأسفين: يا ليتنا لم نقع في الشرك والوثنية، وليتنا نجونا من العذاب بقبول نصح الناصح.

كمــا أن قولــه تعــالى ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ تومئ أيضًا إلى أنهم سيتعرّضون لعذاب يؤدي إلى دمار المدن وهدم المباني.

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

فئةٌ: الفئة: الجماعةُ؛ الطائفةُ (الأقرب).

منتصـــرًا: اســـمُ فـــاعل مِـــن انتصَر منه: انتقمَ منه. وانتصر عليه: استظهرَه (الأقرب).

التفسير: أي أن هذه الأمة ستكون واثقة من أن المسيح سينصرهم، ولكنه أيضًا لن يستطيع نصرهم يومئذ أبدًا.

هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

التفســـير: لقـــد كشفت هذه الآية جليًّا أن هذا البيان القرآني يتضمن نبأ عن المستقبل. ذلك أن الله تعالى يشير هنا إلى أن المُلك يومئذ سيصبح لله الحقِّ، وأنه تعالى سيتفضّل على عباده الموحِّدين الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

شرح الكلمات:

اختلطَ به: أي امتزجَ (الأقرب).

هشيمًا: الهشيم: المهشومُ؛ نبتٌ يابسٌ متكسرٌ، أو يابسُ كلِّ كلأٍ وكلِّ شجرٍ (الأقرب).

تَذرُوه: ذَرَت الريحُ الترابَ: فرَّقتْه وأطارتْه وأذهبتْه (الأقرب).

مقتدرًا: اقتدرَ عليه: قَوِيَ عليه وتَمكَّنَ منه (الأقرب).

التفســـير: بضرب مثل الحياة الدنيا هنا قد زاد الله تعالى المثالَ السابق وضوحًا وجـــلاءً. يوضح هنا ﷻ: إن الحياة المادية تبدو في أول أمرها جميلة جدًّا، ولكن مصيرها مريع تمامًا. أما الحياة الروحية فتبدو في بدايتها عارية من الجمال وقاسية،

ولكـــن عاقبتها تكون جميلة جدًّا. فمع أن نـــزول الماء المادي من السماء يُكثر النـــبات والخضرة لدرجة أن أغصان الأشجار تتشابك بعضها في بعض لكثرتها، لكن هذه الخضرة كلها تيبس حتى تصبح هشيمًا تطير في الرياح. بيد أن الزرع الذي يُسقى بالماء الروحاني لا يذبل ولا ييبس أبدًا.

وقد يعترض على هذا المثال أحد فيقول: الزرع إنما يصلح للأكل بعد أن ييبس ويتهشم؟ والجواب أن الله تعالى لا يضرب هنا مثل الآكل بل مثل الزرع، ليبين أن الشعوب إبان ازدهارها المادي تبدو كزرع نضر يهتز ويتمايل، ولكن لا أحد يلـــوي عليها زمن انحطاطها. وعلى النقيض فإن الأمم التي تهتم بالدين تنال عزةً أبدية في الدنيا، بالإضافة إلى ما لها في الآخرة من تكريم. خذوا على سبيل المثال قـــوم نـــوح، فلم تبق لهؤلاء الكافرين اليوم من باقية، ولكن نوحًا عليه السلام لا يزال يُذكـــر بعزة واحترام. وكذلك كان إبراهيم. والحال نفسه ينطبق على موسى إذ مـــا زال موضـــع احترام في العالم بالرغم من أن قومه اليهود قد ضُربت عليهم الذلـــة. إن الفتوحات المادية التي أحرزها المسلمون في القرون الأولى قد انمحى أثرها واختفى، ولكن لا زال لخدماتهم الدينية تأثير عميق بحيث تجدون حتى اليوم أناسًا يريدون أن يضحّوا بأرواحهم حفاظًا على كرامةِ حتى أقلِّ هؤلاء المسلمين الأوائلِ درجةً.

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

أَمَلاً: راجِعْ شرح كلمات الآية رقم ٤ من سورة الحِجر.

التفســـير: في المثال الأول ذكَر الله تعالى الجنةَ، ثم ساق قولَ صاحبها للشخص الآخـــر: ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفرًا﴾، وذلك لبيان المراد الحقيقي من تلك

الجنة. وبالمثل ذكر في هذا المثال "نبات الأرض"، ثم أردفه بقولـــه ﴿المال والبنون زينةُ الحياةِ الدنيا﴾، وذلك لبيان المقصود الحقيقي من "نبات الأرض" هنا.

إن الله تعـــالى ينبهـــنا أنه بالرغم من أن المال والبنين زينةُ الحياة الدنيا، إلا أن الإنسان لو استخدمها بطريقة سليمة.. أي أنفق مالَه في سبيل إعلاء كلمة الدين وسخر أولاده في خدمة الدين.. لكتب الله لأمواله وأولاده أيضًا الدوام. لا شك أن المـــال يـــنفد بالإنفاق، ولكن أثره الطيب يبقى؛ وبالمثل يفنى الأولاد، ولكن ذِكرهم الحسن لا يفنى؛ وبالتالي يخلد الصيت الحسن لآبائهم.

أما قولـــه تعالى ﴿والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابًا وخيرٌ أملاً﴾ فاعلم أن الباقيات الصالحات تعني كل عمل صالح طيب.

ولقولـــه تعالى ﴿خيرٌ عند ربك ثوابًا وخيرٌ أملاً﴾ مفهومان: الأول أن العمل الطيـــب يأتي بنتيجة طيبة في هذه الدنيا، كما تُعقَد به الآمال الطيبة في الآخرة؛ وكـــأن كلمة "ثوابًا" تشير إلى نتيجة العمل الصالح في الدنيا، بينما تومئ كلمة "أملاً" إلى نتيجته التي ستظهر في الآخرة.

والمفهـــوم الثاني هو أن كلمة "ثوابًا" تختصّ بصاحب العمل الحسن، أما كلمة "أمـــلاً" فتخـــتص بأجياله القادمة.. والمعنى أن أعمالكم الصالحة ستأتي بنتائج مرضـــية لكـــم ولأولادكم أيضًا، لأن من سنة الله تعالى أنه ينفع الأولادَ أيضًا بسبب آبائهم الصالحين.

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

بارزة: اسم فاعل للمؤنث مِن برَز يبرُز بروزًا أي خرَج (الأقرب).

حَشَرْنا: حشَر الناسَ يحشُر حشْرًا: جمَعهم. ويومُ الحشر: يومُ البعث والمعاد، وهو مأخوذ مِن حَشَرَ القومَ إذا جمَعهم. والحاشر اسمٌ من أسماء نبي المسلمين (الأقرب).

لم نغادِرْ: غادَره: ترَكه وأبقاه (الأقرب).

التفسير: اعلَمْ أن من معاني الجبل سيد القوم، ومعنى التسيير المشيُ بأحد (الأقرب). والجبال هنا تعني كبارَ القوم، لأن الحديث هنا يدور عن الناس لا عن الجبال والأنهار.

والمراد من الأرض هنا أهلها، لأن من أساليب اللغة العربية حذف المضاف أحيانًا، ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَاسْئَلِ القريةَ التي كنّا فيها والعيرَ التي أقبَلْنا فيها﴾ (يوسف: ٨٣).. أي اسئلْ أهلَ القرية وأهلَ العير. يوضح الله ﷻ هنا أن هذه الأنباء ستتحقق في الزمن الذي ينفر فيه كبار القوم، وترى الأرض، أي جميعَ أهلها، قد خرجوا ووقفوا وجها لوجه لحرب طاحنة لن تغادر منهم أحدًا.

وفي الإنجيل أيضًا إشارة إلى هذا الأمر حيث يقول المسيح عليه السلام: "تقوم أمة على أمة ومملكةٌ على مملكة" (متى ٢٤: ٧).

وهناك مفهوم آخر: لهذه الجملة إذ قد تعني الأرض هنا الطبقة السفلى من أهلها، بينما تعني الجبال كبار الناس؛ والمراد أنه في ذلك الزمن سينقسم العالم إلى معسكرين متنازعين فيخرج كبار الناس أي الدكتاتوريون من جهة، ومن جهة أخرى يخرج أهل الأرض أي حماة الديمقراطية وممثلو الشعوب. وسوف تحدث حرب طاحنة بين هذين المعسكرين.

أمـــا قولـــــه تعالى ﴿وحشَرْناهم﴾ فاعلمْ أن الحشر يعني جمع الناس وإيقافهم وجهًا لوجه، ومن معاني الحشر العسكر لأن الجنود أيضًا يقفون وجهًا لوجه.* فالمراد أننا سنجعلهم يحارب بعضهم بعضًا، وهكذا سنعاقبهم على سوء أعمالهم.

وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

التفسير: المراد من عرضهم على ربهم صفًّا أن الله تعالى سيُصدر فيهم حكمه، لأن المثول أمامه تعالى لا يكون بالصف الظاهر، بل بالصف المعنوي. وأي شك في أن صدور القرار الإلهي بهلاك قوم هو بمثابة حشرهم وقيامتهم.

وقولـــــه تعالى ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أولَّ مرة﴾ يعني أنكم وقعتم مرة أخرى تحت قبضتنا.

وقولـــه تعالى ﴿بل زعمتم أَلَّن نجَعل لكم مَوعِدًا﴾ يعني أنكم ظننتم أننا لم نحدد لهلاككم موعدًا.

لقد اتضح من هذه الآية أيضًا أن هذا المثال جاء شرحًا للمثال السابق، إذ ورد فيه أيضًا نفس المعنى الذي هو لقوله تعالى ﴿ما أظن أن تَبيد هذه أبدًا﴾.

وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً

* قـــال الإمام الراغب: "الحشرُ إخراجُ الجماعة عن مقرِّهم وإزعاجُهم عنه إلى الحرب ونحوِها. ورُوي: "النساءُ لا يُحْشَرْنَ" أي لا يُخرَجن للغزو" (المفردات). وورد في اللسان: "وفي الحديث أن وفـــد ثقـــيف اشترطوا ألا يُعشَروا ولا يُحشَروا أي لا يُندَبون إلى المغازي ولا تُضرَب عليهم البعوثُ." (المترجم)

وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٥٠﴾

شرح الكلمات:

مشفقين: أشفقَ عليه: خاف وحاذَر (الأقرب).

أحصاها: أحصَى الشيءَ إحصاءً: عَدَّه (الأقرب).

التفسير: المراد من وضع الكتاب هنا العمل بما فيه من القرار والحكم، كما يقال "وضَعْنا فيهم السيف"* أي بدأ سيفُنا يعمل فيهم عمله أي يقتلهم قتلاً.

أما قوله تعالى ﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ فمعناه أن فكرة الحكم الدائم ستنمحي من رؤوس هذه الشعوب، وستمتلئ قلوبهم خوفًا على الحضارة التي كانوا يزهون بها زهوًا كبيرًا، والتي أوشكت على الانهيار.

والمراد من قولهم ﴿يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربك أحدًا﴾ أنهم سيعاقَبون على كل خطأ ارتكبوه من قبل عقابًا يدركون به في قرارة نفوسهم أن الله ﷻ هو الحاكم على الكون فعلاً، إذ لا يترك أي عمل من أعمال الإنسان بدون جزاء.

وأخيرًا يخبر الله ﷻ: إن مصيرهم جدُّ مرير، ولكنه ليس ظلمًا من الله تعالى، بل كان جزاء وفاقًا لأعمالهم.

* ورد في "المنجد": وضَع السلاحَ في العدو: قاتَلَه (المترجم)

وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥١﴾

شرح الكلمات:

لآدم: اللام هنا بمعنى "مع". راجع للمزيد شرح كلمات الآية رقم ٦٢ من سورة الإسراء.

اُسجُدوا: راجع شرح كلمات الآية رقم ٣٠ من سورة الحِجر.

إبليس: راجع شرح كلمات الآية رقم ٣٠ من سورة الحِجر.

الجنّ: راجع شرح كلمات الآية رقم ٢٨ من سورة الحِجر.

فسَق: فسَق الرجلُ فِسقًا وفسوقًا: ترَك أمرَ الله؛ عصى وجارَ عن قصد السبيل؛ خرَج عن طريق الحق. وفسَقت الرُّطَبةُ عن قشرها: خرَجت (الأقرب).

بَدَلاً: البَدَل: العِوَضُ؛ الخَلَفُ (الأقرب).

التفسير: اعلم أن القرآن الكريم كلما تحدَّثَ عن دمار قوم جراء إنكارهم لمأمور من الله تعالى أردفَه بقصة آدم، وذلك تنبيهًا للناس أن يأخذوا العبرة من هذه القصة، ولا يكونوا أولياء الشيطان.

وبهذه الآية حذر الله المسلمين وغيرهم من الأمم من الشيطان وقال: لقد حاول الشيطان إغواءَ آدم من قبل، فاتبَعَه؛ فخُذوا حذركم، يا أبناءَ آدم، من الشيطان ولا تلبّوا نداءه.

مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

عَضُدًا: العُضُد: ما بين المِرفق إلى الكَتِف؛ ويُستعار العضدُ للمُعين (المفردات).

التفسير: اعلم أن ضمير (هم) في قوله ﴿ما أشهدتهم﴾ راجع إلى الشيطان وذريته. ومعنى الآية: أيها الناس، هل تتخذون الشيطان وليًّا لكي تتقدموا وتزدهروا، مع أنه لم يكن له أي علاقة في خلقكم ولا في خلق السماوات والأرض. لقد خلق الله قوى الإنسان كلها من أجل الخير، وما كان الله ليتخذ المضلِّين الأشرار أنصارًا ولا أعوانًا. فلو أن أمة محرومة من قرب الله تعالى أحرزت التقدمَ المادي فلا تظُنَّنَّ أن الله تعالى سيفوّض إليها الآن مُلكَه. كلا، بل إن الله تعالى لم ولن يجعل مقاليد الكون إلا في يده. إن إنجازات هؤلاء القوم تكون مؤقتة عابرة، ولا يلبث الله أن يأتي بالإنسان إلى الخير مرة أخرى.

بالتدبر البسيط يدرك المرء أن هذه الآية تتضمن موضوعًا جليل الشأن، وإليكم بيانه. لقد أكدت الآيات السابقة أن الشيطان أو ذريته ليس لهم أدنى علاقة بخلق السماوات والأرض بلهَ أن يكون لهم دخل فيها؛ مما يكشف جليًّا أنه في الزمن الذي تتحدث عنه هذه الآية سيدّعي بعض أعداء آدم أو أعداء الدين بأنهم سينشئون بقوتهم عالمًا جديدًا ويقيمون نظامًا جديدًا. والله تعالى يردّ عليهم ويقول: هل حدث في الماضي أن استعان الله بالشيطان وذريته في خلق عالم جديد وتوطيد نظام جديد؟ فما دام هذا لم يحصل في الماضي فكيف يمكن أن يحصل في المستقبل. إن الله تعالى هو الذي خلق منذ القدم عالمًا جديدًا ونظامًا جديدًا بواسطة آدم والملائكة، وهكذا سيكون الآن أيضًا، وسيُخلَق العالم الجديد والنظام الجديد عن طريق آدم. إن عملية خلق الإنسان من جديد – أي عملية إزالة العيوب والمساوئ المتسربة إلى البشر وعملية إصلاح الناس من جديد – لن تتمّ بالتدابير الدنيوية، وإنما ستتمّ وفقًا لسنة الله المستمرة منذ القِدم.

مـــا أعظمَ معجزةَ القرآن الكريم! فقد استخدم قبل ١٣ قرنًا تلك المصطلحات الـــتي كانت ستُستخدَم في زمننا هذا الزمن الأخير، مثل New World و New Order. ثم ما أروعَ ما ردّ به على الذين يدّعون ذلك! يعلن القرآن الكريم أن الله تعـــالى لم يستخدم أعداءَ آدم في إنشاء العالم الجديد ولا النظام الجديد قطُّ، بل عهِد هذه المهمة إلى آدم والملائكة دائمًا، وهكذا سيفعل الآن أيضًا.

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

مَوبِقًـــا: وَبِقَ يَوبَقُ مَوبِقًا: هلَك. والمَوبِق: مصدرٌ؛ المَوبِق: الموعِدُ؛ المحبِسُ؛ كلُّ شيءٍ حال بين شيئين؛ وقيل مسافةٌ تهلِكُ فيها الأسواطُ لبُعدها (الأقرب).

التفســـير: يخـــبر الله تعالى أن المسيحيين سيَدْعُون حينئذ آلهتَهم الباطلة.. أي سيتوســـلون تارة إلى قدّيسيهم الذين يزعمون أنهم سيشفعون لهم، وتارة أخرى ســـيدعُون المســـيح، وتارة ثالثة ينادون أُمَّه عليهما السلام، ولكن لن يستجيب لدعائهم أحد من هؤلاء.

وأما قولـــه تعالى ﴿وجعَلْنا بينهم مَوبِقًا﴾ فاعلم أن المَوبِق هو حجاب يحول بين شـــيئين ويفصلهما، كما يعني الهلاك. ونظرًا إلى معنى الحجاب فتعني هذه الجملة أن هؤلاء سيفرض بعضهم على بعض مقاطعة تامة من جراء الحروب. ونظرًا إلى معنى الهلاك فالمراد أنه سيُهلكُ بعضُهم بعضًا.

أما إذا كان الضمير في "بينهم" عائدًا إلى الآلهة الباطلة وإلى مَن يعبدها فالجملة تكـــون تأكـــيدًا، والمراد أنه سيقع بينهم وبين آلهتهم الباطلة حجابٌ يحول دون

وصـــول صـــراخهم إليها؛ أو المعنى أن أرواح آلهتهم ستبدأ في الدعاء على من عبدوها.

وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

مُواقعوها: وقَع الشيءُ وقوعًا: سقَط. ووقَع في الشَّرَك: حصَل فيه. (الأقرب). والمُواقِع اسمُ فاعل مِن واقَعَ؛ وقوله تعالى ﴿هم مُواقعوها﴾ أي هم ساقطون فيها.

مَصـــرِفًا: المصرِف اسمُ مكان مِن صرَفه أي ردَّه عن وجهه (الأقرب).

التفســـير: يقرر الله تعالى أنهم لن يروا حينذاك إلا هلاكهم. علمًا أن النار تعني الحـــرب أيضًـــا، كما في قوله تعالى ﴿كلما أَوقدوا نارًا للحرب أطفأها اللهُ ﴾ (المـــائدة: ٦٥).. أي أن اليهود كلما أشعلوا نارَ الحرب أطفأها الله تعالى؛ إذن فقوله تعالى ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مُواقعوها و لم يجدوا عنها مَصرِفًا﴾ يعـــني أن خطـــر الحرب لن يزال يهدد هذه الشعوب المسيحية حتى توقن أن لا مناص من الحرب، فستسعى لتفاديها السعي كله، ولكنها لن تنجح في مسعاها.

وأمـــا قوله تعالى ﴿فظنّوا﴾ فالظن هنا جاء بمعنى اليقين لا الشك، إذ الظن من الأضداد ويعني الشك واليقين كذلك (الأقرب).

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

شرح الكلمات:

جَدَلاً: الجَدَلُ: شدةُ الخصومة (الأقرب).

التفسير: لقوله تعالى ﴿وكان الإنسان أكثرَ شيء جدلاً﴾ مفهومان: الأول أن الإنسان أكثرُ شيءٍ يتأتى منه الجدلُ، أي مهما حاولتَ شرح الأمر لـــه فإنه يجد فـــيه طريقًا للخصومة، ولا يريد أن يطمئن. والمفهوم الثاني هو: جدلُ الإنسان أكـــثرُ من جدلِ كلِّ مجادِلٍ (روح المعاني).. أي أن الله تعالى وهب لـــه العقل لكي يحرز الرقي الروحاني وينال معرفته ﷻ، ولكنه يتخذ من هذه القوة – التي تمـــيّزه عن سائر الحيوانات – سببًا للمفخرة، ويصبح أحطَّ درجةً من الحيوانات بدلاً من أن يكون بعمله أشرفَ المخلوقات.

عـــلمًا أن كـــلمة "الناس" في هذه الآية تعني أبناء آدم كلهم، بينما تعني كلمة "الإنســـان" الـــنوعَ الخاص منهم الذي مرّ ذكره، والمراد أن الله تعالى قد بين في القرآن الكريم جميع المسائل أيما بيان وبأساليب شتى حتى ينتفع بها البشر، ولكن ذلك النوع الخاص من البشر الذي مر ذكره يتخذ من هذا البيان ذريعة للجدال والنقاش، ويطعن في هذه الأساليب البيانية القرآنية.

وإن في ذلك إيماءة إلى أن المسيحيين سيعتبرون تفاصيل الشرع هذه لعنةً وذلك تنصلاً من العمل بالشرع، مع أنها إنما تستهدف إنقاذ البشر من الهلاك.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

سُنّة: راجع شرح كلمات الآية رقم ١٤ من سورة الحِجر.

قُبُلاً: القُبُلُ: نقيضُ الدُّبُرِ (الأقرب).

التفســـير: أي أن القرآن مليء بدواعي الهدى بحيث يزيل كل عائق في سبيل الهدايـــة. فكـــان الأجدر بهؤلاء أن يتوبوا من عقائدهم الخاطئة ويهتدوا بهدي

القـــرآن، ولكنهم لا ينتفعون به، وكأنهم قد آلَوا إلا أن يروا العذاب. علمًا أن قولـــــه تعالى ﴿سنّة الأولين﴾ يعني الدمار الشامل النهائي، بينما قوله تعالى ﴿أو يأتـــيهم العـــذاب قُبلاً﴾ يعني أنواع العذاب الذي سيحلّ بهم قبل ذلك الدمار النهائي. فالله تعالى يعلن أن هؤلاء يريدون بعملهم العذاب بنوعيه.

وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٧﴾

شرح الكلمات:

الباطل: راجع شرح كلمات الآية رقم ٧٣ من سورة النحل.

ليُدحضـــوا: أَدحـــضَ القـــدمَ: أزلَّها. أَدحضَ الحُجّةَ: أَبطلَها وأَزالَها ودفَعها (الأقرب).

التفســـير: قولـــــه تعـــالى ﴿ليُدحِضوا به الحقَّ﴾ يعني أن الكافرين يخاصمون ويمارون بالباطل كي يمحقوا به الحقَّ ويزيلوه من العالم.

والمـــراد من قوله تعالى ﴿واتخَذوا آياتي وما أُنذِروا هزوًا﴾ أننا نُري الآيات فعلاً ولكـــنهم يستهزئون بها. وهذا هو دأب الأوروبيين في العصر الحاضر، حيث لا يولون للآيات الإلهية أدنى اهتمام، بل يعدّونها ضربًا من أوهام الحمقى. يهتمّون بالتدابير العقلية، أما آيات الله فيحتقرونها احتقارًا.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٨﴾

التفسير: أي مَن أظلم ممن إذا قُرئت عليه آيات الله تعالى احتقرها معرضًا عنها، و لم يفكّر أن أعماله – التي قام بها معتمدًا على عقله – قد أسفرت عن المزيد من الفساد والفتن والحروب. وبالرغم من أنه قد جرب أنه قد فشل في توطيد السلام بناء على عقله فشلاً ذريعًا، إلا إنه لا يلتفت إلى المعونة الإلهية والهداية السماوية؛ وهـــذا يدل على أنه يرفض ما جرّبه بنفسه. فكم هي شنيعةٌ جريمةُ وغفلةُ تلك الأمـــة الـــتي تدّعي أنها تؤسس أعمالَها على التجارب، إذ تولي اهتمامًا شديدًا للـــتجارب الجزئية، ولكنها لا تنتفع من نتائج الخبرة التي هي خبرة القوم كلهم. إذًا فلـــيس مآل ذلك إلا أن يحرمهم الله من الفهم السليم إذ قد رفضوا عمليًّا أن يســـتعينوا بالفهم السليم، وأن يتركهم وشأنهم لأنهم لن ينتفعوا من نصح ناصح مهما قدّم لهم من نُصحٍ.

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٩﴾

التفسير: يعلن الله تعالى إنه لو عاقبهم على جرائمهم لأهلكهم من زمان، ولكنه تعالى لا يهلك قومًا بدون إنذار، لذلك سوف يحذّرهم أولاً، وسيؤاخذهم بعد إقامة الحجة عليهم بواسطة المأمور الذي يرسله في ذلك الوقت.

وقوله تعالى ﴿بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً﴾ يعني أنه تعالى قد حدد لهم موعدًا، ولن يجدوا للنجاة منه ملاذًا سوى الله تعالى.

وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٦٠﴾

التفسير: أي قد خلت قبلهم كثير من الأمم التي لما ظلمتْ، أي لم تصحح موقفها رغم الإنذار السماوي، دمّرها الله تعالى حسبما أنبأ عن هلاكهم سلفًا. إذًا فينبغي لهؤلاء أيضًا أن يفكّروا أنهم مهما أحرزوا من رقي وتقدم فإنهم بشر على كل حال، فأنى لهم أن ينجوا من الهلاك جراء إعراضهم عن الله تعالى وقد هلك البشر قبلهم للسبب ذاته.

واليوم أيضًا يرى ٩٩ % من الناس أن أوروبا لن تُدمَّر بعد الآن. ولكن الله تعالى ينبئ هنا أنه ظن خاطئ يدل على جهل أصحابه. فمن ذا الذي كان يتصور أن الإمبراطوريات السابقة ستدمَّر في يوم من الأيام. ومن ذا الذي كان يتصور أن إمبراطوريات المسلمين أو الرومان أو الفرس ستزول في يوم من الأيام؟ ولكنها كلها هلكت وبادت. فاستغراب الناس من زوال ملك هؤلاء القوم ينافي العقل.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

لا أبرَحُ: ما برِح فلان كريمًا أي بقِي على كرمه (الأقرب).

أمضي: مضى الشيءُ يمضي ومضَا يمضو: ذهَب وخلا (الأقرب).

حُقُبًا: الحُقُب جمع الحُقْبِ وهي ثمانون سنة، ويقال: أكثرُ من ذلك. والحُقْب: الدهرُ؛ السنَةُ، وقيل: السنون (الأقرب).

التفسير: لقد تحدّثَ الله تعالى في الآيات السابقة عن موضوع الصراع بين المسيحية والإسلام بلغة تمثيلية، حيث بيّن أنه صراع بين القوي والضعيف فيما يبدو، ولكن التدبر البسيط يكشف أن القوي من يتجه إلى الله تعالى، وليس مَن شغلته أمور الدنيا. كما أشار ﷻ أيضًا أنه من المقدر للمسيحية أن تزدهر أول مرة حتى مبعث النبي ﷺ، ثم سيُحرز الإسلامُ الرقيَّ لفترة من الزمن، لتزدهر المسيحية ثانيةً. أما الآن فقد تناول الله تعالى الموضوعَ نفسه على أساس ما ورد في الكتب السماوية من أنباء بهذا الصدد.

ولكن معلومًا أن معارضي الإسلام – كما بيّنتُ من قبل– يطعنون في هذه السورة بأنها قد جمعت أحداثًا مختلفة من دون أي رابط بينها؛ بل إن اجتماع هذه الأحداث فيها كان باعث حيرة حتى للمسلمين أنفسهم، الذين اقتنعوا بقولهم إن اليهود سألوا النبي ﷺ عن بعض الأمور فجُمع جوابها في هذه السورة.

ولكن الأمر ليس كذلك كما هو ظاهر، لأن النبي ﷺ إذا كان قد سئل بالفعل عن أصحاب الكهف وذي القرنين فلماذا أقحم الله تعالى بين ذكر أصحاب الكهف وذي القرنين كلَّ هذه التمثيلات المذكورة آنفًا وكذلك حادثَ موسى عليه السلام مع فتاه الذي يبدأ بهذه الآية؟ لِمَ لم يذكر الإجابة عن أصحاب الكهف وذي القرنين على الأقل في مكان واحد؟

الحق أن هذه المواضيع كلها قد وردت هنا بترتيب محكم، وقد جيء بكل حادث ومثال في محله وبمقتضى الضرورة. لقد سبق أن بيّنتُ الحكمة من ورود

هـــذه الأمثال خلال قصة أصحاب الكهف، وأبين الآن الحكمة من ورود قصة موسى عليه السلام في هذا المكان.

لقد سبق أن بيّنتُ أن ثمة في الحياة القومية للمسيحيين أمرًا لم أجد لـــه نظيرًا في حـــياة أية أمة أخرى. ذلك أن الأمة المسيحية نالت الرقي بعد عيسى عليه السلام لمدة مـــن الزمان، ثم توقف رقيها لفترة بعثة نبي آخر وهو نبينا ﷺ حيث حققت أمته ﷺ الرقي لفترة من الزمان، لتستأنف بعدها الأمةُ المسيحية رقيها ثانية؛ وقد أُشير إلى هذا الأمر من قبل بكلمة ﴿نَهَرًا﴾ في المثال السابق حيث قال تعالى ﴿وفجّرنا خلالهمـــا نهرًا﴾. أما الآن فقام بتوضيح نفس الأمر بذكر قصة موسى عليه السلام هنا. ذلك أن موسى عليه السلام مثيلٌ لنبينا ﷺ بحسب النبوءة التوراتية التالية: "أُقيم لهم نبيًّا مِـــن وَسَطِ إخوتهم مثلَك، وأجعلُ كلامي في فمه، فيكلّمهم بكل ما أُوصيه به" (تثنية ١٨: ١٨). كما أشار القرآن الكريم أيضًا إلى هذه النبوءة في قوله تعالى ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهدًا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾(المزّمِّل:١٦). إذًا فقد ذكَر القرآن واقعةَ موسى عليه السلام هذه بين عصري رقي المسيحيين للدلالة على أن ظهور هذا النبي المثيل لموسى بين هذين العصرَين كان ضروريًّا؛ وهكذا دفَع الشبهةَ القائلة بأنه لو كان هذا الذي ادعى النبوة بعد الرقي المسيحي الأول نبيًّا صادقًا فلماذا لم ينته الرقي المسيحي بعد ظهوره كليةً؟ أليس استئناف الرقي المســـيحي بعـــد ظهوره بفترة من الزمن وبقوة أكبرَ يشكّل دليلاً على أن هذا المدعي لم يكن نبيًّا صادقًا، وإلا لأوقف مد الرقي المسيحي؟

لم أذكر هذا الأمر بناء على ذوقي، بل يدعمه أيضًا حادث موسى عليه السلام الذي سأقوم بشرحه لاحقًا. ولقد اكتفيت هنا بالإشارة إلى أن ظهور محمد ﷺ لما كان مقدَّرًا بين عصرَي الرقي المسيحي فذُكر حادث موسى عليه السلام – الذي كان محمد ﷺ مثيلاً له – للفصل بين هذين العصرين، لتُسرد هذه الأحداث بحسب وقوعها المقدَّر.

لقـــد اختلف المفسرون في الواقعة المذكورة هنا. فقال أكثرهم – كما ورد في بعـــض روايات الحديث أيضًا – أن هذه الآيات تتحدث عن أخبار سفر قام به موسى عليه السلام للقاء رجل اسمه الخَضِر.

ثم اخـــتلفوا في بيان دواعي هذا السفر، فقال بعضهم إن موسى عليه السلام قال لله يومًـــا: هل يوجد رجل أعلم منه؟ قال سبحانه وتعالى: نعم، يوجد الرجل الفلاني. فذهب موســـى عليه السلام لملاقاتـــه. وفي رواية أن موسى سُئل مرة: هل يوجد رجل أعلم مـــنك؟ فقال لا أعلم. فأوحى الله إليه وأخبره عن مكان الرجل الذي كان أعلم منه، فذهب لزيارته. (الكشاف والقرطبي والطبري، والبخاري: كتاب التفسير سورة الكهف).

الحـــق أن الناس قد أخطأوا في فهم هذا الحادث. ذلك أن سورة بني إسرائيل أنـــبأت عـــن هجـــرة النبي ﷺ ونتائجها على شكل إسراء، حيث أخبرت عما سيحققه المسلمون من الرقي والازدهار، وعما سيحيق بهم خلال هذه الترقيات مـــن الأخطار المتمثلة في المعارضة الشديدة من قبل اليهود والنصارى. وكان من أكـــبر هـــذه الأخطار الخطر الآتي من إحدى طائفتي الأمة الموسوية وهي طائفة النصـــارى – علمًا أن النصارى هم، عند الله تعالى، من أمة موسى وإن كانوا لا يعـــدّون أنفســـهم منها. فأخبر الله تعالى أن هؤلاء سيُلحقون بالمسلمين في آخر الـــزمان ضـــررًا كبيرًا جدًّا. وقد ذَكَرَ الله تعالى إسراء موسى عليه السلام عقبَ إسراء محمـــد ﷺ لـــيؤكد أن العاقبة لمحمد ﷺ ولأمته، وأن هذه الطائفة الثانية من أمة موسى، أي المسيحيين، لن يبقوا غالبين.

كان أستاذي المكرم حضرة المولوي نور الدين رضي الله عنه يرى أن هذه الواقعة كانت كشفًا من كشوف موسى عليه السلام، وأنها لم تقع بالجسم المادي (حقـــائق الفرقان ج ٣ قولـــه تعالى: وأما الغلام فكان أبَواه مؤمنَين). وبعد التدبر في الأمر توصلت إلى أنه رضي الله عنه كان مصيبًا في رأيه هذا. وإليكم الأدلة على ذلك:

الأول: أنـــه لا يوجـــد في الـــتوراة أي ذكر لهذا السفر، مما يدل على أن هذا الحادث لم يقع في العالم المادي. كان من الممكن أن يختلف العهد القديم والقرآن

الكـــريم لحد ما في بيان تفاصيل هذا السفر، أما أن يخلو العهد القديم عن ذكره أصلاً فهو أمر جد غريب.

نعـــم إن الروايات الإسرائيلية تتحدث عن معراج لموسى عليه السلام (الموسوعة اليهودية كلمة Ascension).

وقـــد بلغـــني أن عزيزي المولوي جلال الدين شمس قد استخرج من المصادر الموجـــودة في مكتـــبة المتحف البريطاني بلندن روايات يهودية تشير إلى معراج موسى، وأنه كان معراجًا بالجسد المادي. ولكن قولهم هذا ليس حجة علينا، إذ يوجـــد بيننا نحن المسلمين أيضًا من يزعم أن إسراء سيدنا محمد ﷺ كان بالجسد المادي (تفسير ابن كثير، وتفسير معارف القرآن: سورة الإسراء).

الـــثاني: لم يثبـــت لموسى عليه السلام قبل بعثته إلى بني إسرائيل إلا سفر واحد، وهو سفره إلى مَدْيَنَ، وقد ذكره القرآن الكريم في أكثر من موضع. وقد أجمع القرآن والعهد القديم على أنه لم يكن مع موسى في ذلك السفر أحدٌ (سورة القصص: ٢٢-٢٤، وســـفر الخـــروج ٢: ١٥، ١٦). بينما نجد في السفر المشار إليه هنا رفيقًا لموسى تابعًـــا لـــه على ما يبدو، لأن لفظ "فتى" إذا ورد مضافًا إلى أحد فيعني ابنَه أو خادمَـــه. إذًا فكـــلمات هذه الآية لا تنطبق على السفر الذي قام به موسى إلى مَدْيَن. وبما أنه لم يثبت لموسى عليه السلام سفر غيره فثبت أن السفر المشار إليه لم يكن إلا كشفًا.

الثالث: لم يثبت لموسى عليه السلام حتى بعد بعثته سفرٌ فارقَ لأجله قومَه. ولقد سجّل العهد القديم أحداث حياة موسى من الأول إلى الآخر بترتيبها الواقعي، ولكن لا نجد فيها أيضًا ذكرًا لهذا السفر، وهذا يدل على أن هذا السفر لم يكن حادثًا ماديًّا.

الرابع: لما ذهب موسى عليه السلام لسماع كلام الله إلى الجبل الذي كان يقع على بعد بضعة أميال فقط من قومه، وبقي هناك أربعين ليلة، اتخذ بنو إسرائيل في غيابه العجلَ إلهًا (الأعراف: ١٤٣-١٤٩). فإذا كانت غيبته لمجرد أربعين يومًا أدّت

إلى مثل هذا الفساد في قومه، فماذا عسى أن يقع فيهم أثناء غيابه الطويل عنهم بسبب هذا السفر الطويل؟ ولكننا نعرف أنه لم يقع أي فساد بين بني إسرائيل نتيجة هذا السفر، إذ لا تشير التوراة إلى أي فساد آخر غير الذي حصل باتخاذهم العجل إلهًا. كما أنه لم يكن من الحكمة أن يذهب موسى في مثل هذا السفر الطويل بعد ما شاهدَ من فساد قومه ما شاهدَ.

الخامس: عندما ذهب موسى إلى الجبل لميقات ربه أربعين ليلة استخلف أخاه هارون على قومه، ولكن لم يثبت أن موسى عليه السلام استخلف أحدًا – هارونَ أو غيره – خلال هذا السفر. إذا كانت التوراة قد سكتت عن ذكر أحداث هذا السفر لسبب ما، فكان من واجبها أن تذكر – على الأقل – استخلافَ موسى لأحد عند هذا السفر، إذ ليس من المعقول أن يذهب موسى عليه السلام لهذا السفر الطويل من دون أن يستخلف على قومه أحدًا. فعدم ذكره في الكتاب المقدس يدل على أن هذا السفر لم يكن بالجسد المادي.

السادس: أنه مما يتعارض مع سنة الأنبياء أن يفارقوا قومهم لأمد طويل بعد أن يبعثهم الله تعالى، حيث لا نجد بين الأنبياء الذين يذكرهم التاريخ نبيًّا واحدًا فعَل ذلك. لا ريب أن المسيح عليه السلام فارقَ قومَه حسب عقيدتنا، ولكنه في الحقيقة فارقَ طائفةً من قومه إلى طائفة أخرى منهم؛ وهناك أمثلة كثيرة حيث قام الأنبياء برحلات تبليغية بين قومهم، لكن سفر موسى عليه السلام هذا لم يكن من أجل التبليغ، كما لم يسافر في منطقة قومه، وإنما فارقَ قومه لمجرد أن يتعرف على الرجل الذي كان أعلم منه.

السابع: قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير الكنز المذكور في هذا الحادث: "ما كان الكنز إلا علمًا" (ابن كثير، قوله تعالى: ذلك تأويلُ ما لم تَسْطِعْ عليه صبرًا). والجلي أن ما قاله ابن عباس تعبيرٌ، والتعبير لا يكون إلا للكشوف والرؤى. ولما كان الكنز علمًا فثبت أن الجدار الذي أقامه موسى ورفيقُه لم يكن جدارًا ماديًّا كذلك، كما أن الطعام الذي طلباه من أهل القرية لم يكن طعامًا ماديًّا. فإذا

كان هذا الجزء من الواقعة كشفًا فلا شك في كون الواقعة كلها كشفًا من الكشوف.

الثامن: أن الشهادة النابعة من الحادث نفسه أيضًا تؤكد أنه لم يكن حادثًا ماديًّا. خُذْ مثلاً حادثة خرق السفينة، حيث قيل إنما خرَقها صاحبُ موسى كيلا يأخذها الملكُ غصبًا. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل تعطلت السفينة من ذلك الخرق أم لا؟ وإذا كانت لم تتعطل فلِمَ لم يغصِبْها الملكُ؟. وإذا كانت تعطلت بالمرة فلم لم تغرَق من الخرق الحاصل فيها؟ إذ من المستحيل في العالم المادي أن تسلم من الغرق السفينةُ التي يُنـــزع لوح من ألواحها. ولكن رؤية مثل هذا المنظر في الكشف ممكن تمامًا، ولا يخالف العقل بتاتًا.

كذلك لا يمكن أن تؤخذ حادثة "قتل نفس بغير نفس" من حيث الظاهر، لأن العبد الذي تبعه موسى عليه السلام ليتعلم منه إما أن يكون نبيًّا أو وليًّا مقرَّبًا لدى الله تعالى. ولا يمكن أن يجترئ على قتل نفس بغير نفس حتى المؤمنُ العادي، فهل يرتكبه وليٌّ مقرّب أو نبيٌّ عظيم الشأن.

يقول البعض لإثبات جواز قتل الغلام أنه لو عاش لكان قتّالاً وسفّاكًا. ولكنا نقول: إنه من الظلم العظيم ومما ينافي الشرعَ تمامًا أن يعاقَبُ شخص على جناية لم يرتكبها بحجة أن الله تعالى كان يعلم أنه سيرتكبها في المستقبل؟ لو كان مثل هذا العقاب جائزًا فلماذا لا يعاقب الله تعالى عباده قبل ارتكابهم الجرائم لمجرد علمه أنهم سيرتكبونها؟ إن القانون الأساسي في الشرع هو أن لا يعاقَب أحدٌ على إثم قبل ارتكابه، وإن جميع الشرائع على اختلافها متفقة على هذا الأصل.

وقد قال البعض إن ذلك الغلام كان يقتل بالفعل خفيةً ولكن لم يظهر على أمره أحد (زاد المسير لابن الجوزي). ولكنه قولٌ سخيفٌ، إذ لو كان الأمر كذلك لذكره القرآن المجيد ليعلَم الناس ويطمئنوا بأن قتل الغلام لم يكن بلا سبب.

والحادث الأخير في هذا السفر هو إقامة الجدار، وهو أيضًا لا يمكن أن يؤخذ على ظاهره، إذ لا يُعقَل أن نبيًّا جليلاً كريمًا كموسى عليه السلام يلوم رفيقه على إقامة

جدار اليتيمين لأن أهل القرية أبوا أن يضيّفوهما، وبخاصة أنه لم يكن لليتيمين البريئين دخلٌ في هذا، بل كان الذنب ذنب أهل القرية. ثم إنه بعيدٌ عن مروءة ونبل موسى عليه السلام أن يعترض على رفيقه لعدم اتخاذه أجرًا على إقامة جدار اليتيمين.

إذًا فأحداث هذا السفر تشهد بنفسها على أنه لم يكن سفرًا بالجسد المادي، بل كان كشفًا من الكشوف.

التاسع: إن هذه الواقعة بمجملها تؤكد أنها كانت كشفًا، لأن الأمور الثلاثة – الصادرة من عبد الله هذا الذي اتّبعه موسى عليه السلام – إذا حُملت على ظاهرها فهي ليست من الأهمية بحيث يسافر من أجل تعلُّمها مؤمن عادي بَلْهَ أن يُرسل الله تعالى موسى ليتعلّمها. هل راح موسى عليه السلام ليتعلم كيف تُخرَق السفن، ويُقتَل الناس، وتقام الجدران المتهدّمة، وهل يؤخذ الأجر على إقامة الجدار أم لا؟ كلا، لن يسافر لتعلُّم مثل هذه الأمور حتى بدوي جاهل. إذًا فليس في هذه الأمور ما يجيز العقل اعتباره أمرًا ماديًّا هامًّا حتى يسافر من أجله نبيٌّ جليل الشأن كموسى الذي كان من أولي العزم من الرسل عليهم السلام.

العاشر: روى الماوردي أن الذي ذهب موسى للقائه كان مَلَكًا (ابن كثير). وهذا يعني أنه لا بد من اعتبار هذه الواقعة كشفًا، إذ لا يُعقل أن يتكبد موسى عليه السلام عناء السفر المادي لزيارة ملاك قادر على أن يأتي إلى موسى في لمح البصر.

الحادي عشر: ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: "وَدِدْنا أن موسى كان صبَر حتى يقصّ الله علينا من خبرهما" (البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى وإذ قال موسى لفتاه). فإذا حُملت هذه الأمور على ظاهرها فلا أجد أنا في نفسي أدنى رغبة في معرفة هذه التوافه، كما لا أتصور أن أيّ عاقل سيتمنى ذلك؛ فكيف برسول الله ﷺ الذي شأنه أسمى من إدراك البشر؟ فثبت أن هذه الأمور كانت أنباءً تتعلق بزمن نبينا ﷺ وتجلّتْ على موسى عليه السلام على صورة كشف. وبما أنها تشتمل على الغيب وتنبئ عن أحوال الأمة المحمدية لذلك تمنى رسول الله ﷺ أن يظل موسى

صامتًا حتى تنكشف أمور أخرى أيضًا. فثبت من كل هذه الأدلة أن هذا الحادث كان كشفًا من الكشوف.

مما لا شك فيه أن هذا الحادث غير مذكور في العهد القديم، بيد أن كتب الروايات اليهودية تشير إليه. كما يتضح من المصادر الإسلامية أن مثل هذه الروايات كانت شائعةً بين اليهود في أوائل الإسلام، وإلا من أين أخذها المسلمون؟

غير أن الروايات اليهودية لا يمكن أن تؤثر على بحثنا، ولسنا مكلفين بقبولها ما لم يصدّقها القرآن والعقل والمشاهدة، بل إن قبولها من دون هذه الشروط لا يخلو من المزالق.

وملخص القول إن العقل والنقل كلاهما يقرّران كون هذه الواقعة مشهدًا من الكشوف الروحانية.

وهناك سؤال: من هو ذلك العبد من عباد الله الذي ذهب موسى عليه السلام في إسرائه ليتعلّم منه؟ كان أستاذي المكرّم حضرة المولوي نور الدّين رضي الله عنه يرى أن رسول الله ﷺ هو الذي تمثل لموسى. وقد تبين لي صواب رأيه بعد التدبر في الأمر، وأيقنت أن سيدنا محمدا ﷺ هو الذي تمثل لموسى عليه السلام، ومن أجل ذلك تمنّى النبي ﷺ قائلاً: ليت موسى سكتَ حتى نزداد علمًا بالأمور التي تتعلق بمستقبلنا.

وأرى – ورأيي هذا لا يتأسس على فهمي فحسب – أن موسى لما تلقى النبأَ عن ظهور محمد ﷺ عند جبل سيناء (تثنية ١٨: ١٨)، وعلِم أن نبيًّا عظيمًا سيظهر بعده، تمنى أن يشاهد ذلك التجلي العظيم الذي يظهر به اللهُ على ذلك النبي، فلم يتمالك نفسَه وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾؟ فأجابه الله تعالى: ﴿لن تراني﴾، لأن كلّ واحد يرى التجلي الإلهي اللائق به.

ومما يؤيد رأيي هذا أن موسى عليه السلام كان سبق أن شاهد التجلي الإلهي قبل هذا السؤال حيث قال الله تعالى لـــه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ

المقدَّس طُوًى﴾(طه: ١٣). فرغم مشاهدته التجليَّ الإلهيَّ من قبل لِمَ قال موسى مرة أخرى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إليك﴾؟

وقد يقال هنا: التجلي الذي شاهده من قبل كان روحانيًا، فأراد هذه المرة رؤية الله تعالى في صورته الأصلية. ولكن هذا القول تسفيهٌ لنبيّ الله موسى، ونعوذ بالله من ذلك، لأن طلب رؤية الله تعالى جهرةً في جسدٍ هو غاية السفاهة والجهالة، ولا يجوز عزوها لموسى عليه السلام. فثبت أن طلبه هذا لم يكن إلا للرؤية الروحانية. وبما أن التجلّي الإلهي كان حصل لموسى عليه السلام من قبل، فلا بد أن يكون طلبه هذه المرة لرؤية تجلٍّ من نوع آخر؛ وبما أنه عليه السلام سأل التجلي الإلهي هذه المرة بعد تلقّي بشارة ظهور محمد ﷺ مباشرة، لذا أستنتج من ذلك أنه سأل هذه المرة رؤيةَ التجلّي الإلهي الذي سينكشف على محمد ﷺ. فردّ الله عليه ﴿لن تراني﴾.. أي ليس بوسعك أن تراني بالصورة التي يراني بها محمد ﷺ، لأن رؤية ذلك التجلي تتطلب من الرائي أن يكون حائزًا على المرتبة المحمدية التي لم تَحُزْها أنت. وبالفعل لما تجلّى الله للجبل خرّ موسى صعقًا، وعرَف أنه لم يكن بوسعه تحمل ذلك التجلّي العظيم.

فأرى أن الله تعالى أراد بهذا الكشف أن يُرِيَ موسى عليه السلام سُموَّ مكانة النبي ﷺ إذ لم يكن الخضرُ في الكشف إلا حبيبي محمد ﷺ الذي لم يكن موسى عليه السلام قادرًا على السير معه. اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وبارِكْ وسلّم إنك حميد مجيد.

أما قوله تعالى ﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾ فقد ورد في الروايات أن ذلك الفتى هو يوشع بن نون (الكشاف). ولا غرابة في أن يكون موسى قد رأى معه في الكشف يوشع، ولكني أرى أن هذا الفتى هو في الحقيقة عيسى عليه السلام الذي كان من المقدر أن يُبعَث في آخر الأمة الموسوية لهداية بني إسرائيل؛ وكأن سفر موسى هذا ما كان ليبلغ نهايته إلا مع عيسى عليهما السلام.

والحق أن هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها أيضًا تدعم رأيي بأن هذا الفتى هو عيسى عليه السلام، إذ لم تذكر أن موسى أخذ معه فتاه حين خروجه من البيت، بل إنها لا تشير حتى إلى بداية سفره هذا. كل ما ورد فيها هو أن موسى عليه السلام وجد نفسه في حالة السفر مع فتى، فقال لفتاه: سأظل أمشي حتى أبلُغَ مجمَعَ البحرينِ أو أمضيَ حُقُبًا. وإن اللفظ الذي استعمل لبيان مدة هذا السفر هو حُقُب وهو جمع الحَقْب الذي معناه ثمانون سنة أو أكثر منها. والحق أن هذا اللفظ في اللغة العربية يقوم مقام القرن أي مائة سنة، وقد يُستعمل بمعنى سنة أو عدة سنين أيضًا. وإذا أخذنا المعنى الأخير فقوله ﴿أو أمضيَ حُقُبًا﴾ يعني أو أمشي سنين أو عشرات السنين. والظاهر أن مفارقة نبي لقومه لسنوات يتنافى مع العقل، بل يؤدي إلى التشكيك في ضرورة النبوة نفسها. إن رسول الله ﷺ لما وجد نفسه مضطرًا للهجرة إلى المدينة أمَر أصحابه بالهجرة إليها قبل أن يهاجر هو نفسُه، كما كان في المدينة نفسها جماعةٌ من المؤمنين المخلصين تنتظرهم. إذًا فلو كان موسى عليه السلام يعني بقوله: ﴿أو أمضيَ حُقُبًا﴾ أنه سيظل يمشي لسنوات فهذا أيضًا يدل على كون هذه الواقعة كشفًا. أما إذا أراد به أنه سيظل يمشي لقرون – وهو الأصح عندي – فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الله تعالى قد أجرى هذه الكلمات على لسان موسى للدلالة على أن سفره الروحاني – أي زمن أمته – سيمتد إلى قرون طويلة.

وعندي أن في ورود هذه الجملة في هذا المقام حكمةً أخرى، وهي أنه كان من المقدر – لدى تلك المرحلة من السفر الموسوي التي سيُرافقه فيها فتاه – أن تعتقد طائفة من أمّة موسى خطأً بانتهاء سفره وبداية سفر فتاه عيسى؛ بمعنى أنها ستظن أن زمن الشريعة الموسوية قد انقضى، وأن عيسى قد جاء بدين جديد؛ لذلك دحض الله عز وجل هذه الشُّبهة بهذه الجملة على لسان موسى وبيّن أن سفر موسى لم ينته بلقاء فتاه بل سينتهي عند مجمع البحرين، أي لدى بعثة محمد ﷺ. وكأنه تعالى يقرر هنا أن عيسى لن يأتي بدين جديد، بل يكون تابعًا ومؤيِّدًا لدين

موسى، ولن يُنهي سفرَ موسى بل سيكمِّله كنائب عنه. وهذا الأمر قد أكده عيسى عليه السلام نفسُه حين قال: "لا تظنوا أني جئتُ لأنقُضَ الناموسَ والأنبياء. ما جئتُ لأنقض بل لأُكمِّلَ" (متى ١٥: ١٦).

يظهر من هذا الكشف أن موسى إما بدأ سفره هكذا بأن وجد نفسه وكأنه على سفر مع فتاه، وأنه متحيّر لعدم الوصول إلى غايته المنشودة؛ وإما أن هذا الكشف كان طويلاً، فلم ير القرآن المجيد حاجة إلى ذكر بدايته التي اشتملت على أحداث لا علاقة لها بالموضوع. ذلك أنه لا يقول أحد: ﴿لا أبرَح حتى أبلُغَ مجمَعَ البحرينِ أو أَمضيَ حُقُبًا﴾ إلا إذا كان قد ضلّ الطريق لفترة طويلة، فتأخذه الحيرة فيقول: أين غايتي المنشودة؟

وعندي أن هذا أيضًا دليل على أن الفتى الذي لقي موسى قبيل انتهاء سفره، وصار رفيقه في هذا السير الروحاني هو عيسى عليهما السلام.

واعلم أن لفظ ﴿مجمع البحرين﴾ أيضًا يؤكد كون هذه الواقعة كشفًا، إذ ليس ثمة مقام معروف بمجمع البحرين. هناك ثلاثة أماكن هي أقرب المواضع إلى المقام الذي سكن فيه موسى عليه السلام بعد الهجرة يلتقي فيها بحران، وهي:

١ – مضيق باب المندب حيث يلتقي البحر الأحمر والمحيط الهندي.

٢ – مضيق الدردنيل حيث يلتقي بحر الروم وبحر مَرْمَرَة.

٣ – مضيق البحرين حيث يلتقي الخليج الفارسي والمحيط الهندي.

كل من هذه الأماكن الثلاثة يبعد عن وطن موسى عليه السلام نحو ألف ميل، ونظرًا لحالات ذلك الزمان كان السفر إليه يستغرق سنة تقريبًا. وكما هو بيّنٌ من الكشف أن موسى سافر ماشيًا على ساحل البحر، وفي حال اعتباره سفرًا ماديًّا فليس مجمع البحرين هذا إلا مضيق الدردنيل لأنه هو المكان الوحيد من بين هذه الأماكن الثلاثة الذي يمكن أن يصل إليه المرء من مسكن موسى عليه السلام عبر ساحل البحر. ولكن هذا الطريق يمر بأرض كنعان التي لم يستطع موسى عليه السلام أن

يدخلها أبدًا في حياته، كما يشهد عليه العهد القديم (تثنية ٣٤: ٥). وهذا دليلٌ آخر على كون هذه الواقعة كشفًا.

فالحقيقة أن مجمع البحرين ليس اسم مقام ماديّ خاص، بل هو اسم يتطلب تعبيرًا، حيث ورد عن البحر: "يدلّ في المنام على مَلِكٍ قويٍّ هائل مهابٍ عادلٍ شفيقٍ يحتاج إليه الخلائقُ." ثم يقول: "وربما دلَّ البحرُ على التسبيح والتهليل" (تعطير الأنام: كلمة البحر).

وكأن هذا التعبير القرآني الأخير يومئ إلى قول الله تعالى في مستهل سورة الإسراء: ﴿سبحان الذي أَسرَى بعبده﴾. فالمراد من مجمع البحرين الزمن الذي انتهى فيه عهد موسى عليه السلام وابتدأ عهد محمد ﷺ.. أي أن الساعة التي تلقى فيها سيدنا محمد رسول الله ﷺ أولَّ وحي النبوة كانت مجمع البحرين، حيث انتهت الحدود الزمنية لمُلك موسى عليه السلام الذي كان حاكمًا روحانيًّا عادلاً شفيقًا لا غنى للخلق عنه، وابتدأت الحدود الزمنية لمُلك محمد رسول الله ﷺ الذي كان أكبر البِحار أي الملوك الرّوحانيين. فكأن الله تعالى أراد بإراءة موسى عليه السلام مجمعَ البحرين أن يدله على زمن ينتهي فيه عهد أمّته ليبدأ من هناك بحر آخر أي زمنُ نبي جديد، وأنه لن ينال بعد ذلك أحدٌ أسباب الحياة الروحانية إلا الذي يغوص في هذا البحر الجديد.

هذا، وتتضمن هذه الرؤيا أيضًا الإشارةَ إلى أن السلسلة الموسوية كانت إرهاصًا للسلسلة المحمدية، وأن البحر الموسوي سيلتقي في نهاية المطاف بالبحر المحمدي؛ والدليل على ذلك هو مجيء جبريل عليه السلام بنفسه إلى رسول الله ﷺ في الإسراء، بينما نجد موسى عليه السلام في كشفه يخرج بنفسه مع فتاه إلى مجمع البحرين حيث انتهى سفره (الدر المنثور، ودلائل النبوة للبيهقي: باب الإسراء).

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٣﴾

شرح الكلمات:

حُوت: الحوت السمك، وقد غلَب في الكبير منه (الأقرب).

سَرَبًا: السَّرَبُ: جُحْرُ الوحشيِّ؛ الحفيرُ تحت الأرض؛ القناةُ يخرج منها الماءُ. والسَّرَب أيضًا مصدرُ سرِب يسرَب يقال سرِبت المزادةُ سَرَبًا: سالتْ وجرَتْ (الأقرب).

التفسير: اعلم أنه قد ورد في كُتب علم التعبير عن الحوت: "ربما دلّت رؤيتُه على معبد الصالحين ومسجد المتعبدين" (تعطير الأنام: كلمة الحوت).

يتضح من هذه الآية والآيتين التاليتين أن علامة مجمع البحرين التي أُوتِيَها موسى عليه السلام هي غياب الحوت عند وصوله إلى المجمع. فالمراد من قوله تعالى ﴿نسيا حوتهما﴾ أن المقام الذي تخرج عنده معابدُ الصالحين ومساجد العابدين من أيدي هؤلاء هو مجمع البحرين.. أي المقام الذي تنتهي إليه السلسلة الموسوية وتبتدئ منه السلسلة المحمدية.

كم هو واضح وجليٌّ هذا المعنى، أعني عند ظهور نبيّ جديد يُنـــزع الصلاح والعبادة الحقيقية من الأمة القديمة، وينتقلان إلى قوم النبيّ الجديد. وإلى هذا يشير هذا الكشف، حيث أخبر الله تعالى أنه بعد ظهور محمد رسول الله ﷺ إنما تُقبَل العبادات من الأمة المحمدية وحدها، ولن تحظى عباداتُ بني إسرائيل أمةِ موسى بالقبول عند الله تعالى، وستندثر آثار العبادة الحقيقية والصلاح والورع في أفراد الأمة الموسوية.

فقوله تعالى ﴿نسيا حوتهما﴾ يعني أن الأمة الإسرائيلية الخالصة – أي قوم موسى – ستخلو من العبادة الحقيقية والتقوى الحقيقية قبل مجيء مجمع البحرين

بزمن طويل، ولن تبقى العبادة والصلاح إلا في أمة يمكن أن تدعى قومًا لموسى ولفتاه معًا، أو بتعبير آخر: عند ظهور المسيح عليه السلام ستوجد العبادة الحقيقية في المسيحيين فحسب، بينما سيُحرَم منها باقي بني إسرائيل.

ولكن بما أن عيسى هو أحد أنبياء السلسلة الموسوية، فحُوته بالتالي هو حوت موسى، لذا فقولـــه تعالى ﴿نسيا حوتهما﴾ تتضمن أيضًا الإشارةَ إلى أنه حتى النصارى- وهم الذين ينتمون إلى هذين النبيين معًا - سينسون حوتهم عند مجمع البحرين.. أي سيُحرمون هم الآخرون من العبادة الحقيقية والتقوى عند ذلك المقام.

هذه الآية أيضًا تؤكد كون هذا السفر كشفًا، لأن مجمع البحرين المادي ليس من الصعب معرفته عند المرور به، ولا يمكن أن يتجاوزه المارُّ دون أن ينتبه له، كما أن معرفته لا تحتاج إلى علامة من حوت أو غيره. فلا شك إذن أن مجمع البحرين هذا روحاني يُعرَف بالآثار والعلامات إذ لا يوجد له علامة مادية يُعرف بها، بل وإن الناس في ذلك الوقت يكونون معارضين ومكذبين، ولا يقبَلون أن مجمع البحرين قد أتى.. أي لا يقبَلون أن عهد النبيّ السابق قد انتهى وعهد النبيّ الجديد قد ابتدأ. إن العلامة التي يُعرَف بها هذا الأمر هي فقدان العبادة والصلاح في قوم النبيّ السابق. عندما يرى أولو الألباب هذا الفرق البيّن أعني حين يرون أن الله تعالى لا يقيم لعبادات القوم الأول وزنًا، ويقبل عبادات القوم الثاني ويستجيب أدعيتهم، يدركون أن مجمع البحرين قد جاء.

وقد أشير إلى هذا الموضوع بألفاظ واضحة في موضع آخر من القرآن المجيد حيث قال الله تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشدَّاءُ على الكفار رحماءُ بينهم تراهم رُكَّعًا سُجَّدًا يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا سِيماهم في وُجُوههم مِن أثرِ السجود ذلك مَثَلُهم في التوراة﴾(الفتح: ٣٠).

لقد صرَّح الله تعالى هنا جليًّا أنه كان أخبر بواسطة موسى عليه السلام أن من آيات صدق محمد ﷺ وجماعته أن آثار وجوههم ستدل على أن سجودهم وعباداتهم

مقبولة لدى الله تعالى، ولكن عبادة خصومهم مرفوضة، ولا تبدو آثار فضله تعالى في وجوههم.

وبناء على هذه الآية أرى أن هذا السفر الروحاني لموسى عليه السلام كان مذكورًا في التوراة، ولكن اليهود كدأبهم محوا أثره لكونه ضربة قاضية عليهم. ولكن بقي ذكره في روايتهم السماعية، فنجده مسجَّلاً في كتبهم الأخرى بصورة مشوهة.

كما يتضح أيضًا من الآية التي نحن بصدد تفسيرها أن السلسلة الموسوية كانت بمثابة حلقة للسلسلة المحمدية، لأن فقدان علامة مجمع البحرين في العالم الظاهري يدل على أن هذين البحرين كانا سيلتقيان بحيث لا يبدو للرائي أنهما بحران، بل يبدو البحر الثاني جزءًا من البحر الأول، وكأن ماء البحر الأول دخل في البحر الثاني بشكل لم يعودا معه بَحرين متقابلين حتى يُعرَف مجمع بينهما بعلامة معينة.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾

شرح الكلمات:

غداءنا: الغداءُ طعامُ الغُدْوة (الأقرب).

نَصَبًا: النصبُ التعَبُ (المفردات). رَاجِعْ للمزيد شرح كلمات الآية رقم ٤٩ من سورة الحجر.

التفسير: اعلم أنه ليس من الضروري أن نؤول كل جزء من أجزاء الكشف، إذ قد يرى الإنسان في الكشف أمورًا تكمل مشاهده ولكنها ليست بحاجة لتأويل وتعبير. مثلاً إذا رأى المرء في الرؤيا منظر الموت، ورأى معه مكانًا ما، فلا يحتاج ذلك المكان إلى تعبير، إنما المنظر الذي يُستدل منه على موت أحد يقتضي التعبيرَ. ومع ذلك فإن تعبير مثل هذه الأماكن قد يساعد على فهم الموضوع، لذلك أريد أن أفسر الغداء المذكور هنا أيضًا حسب علم التعبير.

إن طلب الغداء في الرؤيا يدل على التعب والنصب حيث ورد: "مَن رأى أنه يطلب غداءً فإنه يتعَب" (تعطير الأنام: الغداء). فتعني الآية أنه لما يأتي مجمع البحرين أي يأتي زمنُ رسول الله ﷺ.. فلا تنتفع منه أمة موسى وعيسى عليهما السلام – علمًا أن موسى وعيسى في هذا الكشف إنما يمثّلان أمتهما، إذ لم يجدا زمن محمد ﷺ – بل ستستمر في كفرها ولا تبرح مسافرة، دون أن تقبل أن زمن دينها قد انتهى؛ ثم بعد سفر طويل تشعر بتعب شديد، وتقول في حيرة بالغة: لِمَ لم يظهر النبيّ الكامل الذي وُعدنا بظهوره؟ ثم بعد عنائها الطويل تقول في نفسها: ألسنا على خطأ؟ فلعل ذلك النبيّ يكون قد ظهر، ولكنا حُرمنا الإيمانَ به!؟

قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنْسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٤﴾

شرح الكلمات:

الصخرةُ: الحجرُ العظيمُ الصُّلْبُ (الأقرب). وفي علم التعبير الصخرةُ "تدلّ على القبح من الفجور" (تعطير الأنام: كلمة الصخرة).. أي أنه إذا رأى أحد الصخرة في المنام فالمراد أن الرائي يُبتلى بأقبح الفسق والفجور.

التفسير: ونظرًا إلى تأويل الصخرة فإن قوله ﴿إذ أَوَينا إلى الصخرة﴾ سيعني أننا لما ابتُلينا بالفسق والفجور.. والمراد أن الذين ينتسبون لكلا النبيين موسى وعيسى عليهما السلام – وهم النصارى – حين يقعون في هوة الفسق والفجور، فذاك هو زمان مجمع البحرين.. أي الزمن الذي سيظهر فيه محمد رسول الله ﷺ، لأن الأنبياء لا يرسَلون إلا عند تفشّي الفسق والفجور بين الناس.

فتأويل المنظر المذكور أنه بالرغم من أن الزمن الذي سيعمّ فيه الفساد والفجور بين الأمة المسيحية هو زمن ظهور محمد رسول الله ﷺ، إلا أن النصارى لن يدركوا ذلك إلا بعد زمن طويل، وبعد نَصَبِهم في السفر المضني، وإخفاقهم في جهودهم؛ فيتأسفون على فوات الأوان.

ويزداد هذا المفهوم جلاءً بقوله تعالى ﴿وما أنسانيه إلا الشيطانُ﴾.. أي سيقول المسيحيون في أنفسهم: ما حَرَمَنا من معرفة محمد ﷺ إلا وساوس الشيطان وهواجسه، إذ ما دمنا قد رأينا أن عباداتنا لم تعد تؤتي ثمارها، وأننا قد انغمسنا في الفسق والفجور، فلِمَ لم ندرك حينها أن مقام مجمع البحرين قد جاء، وأن الله تعالى قد خذَلنا، وأن عهد النبيّ الموعود قد بدأ؟ ذلك أن قوله ﴿واتَّخذ سبيلَه في البحر عَجَبًا﴾ إشارة إلى عجبهم من خَطَئهم، وأنه كيف خرَج الحوت من أيديهم ودخَل في البحر الثاني، أي كيف انتقلت ثمرات العبادة إلى المسلمين، وبقينا محرومين منها.

هذا المنظر أيضًا يدل على كون هذه الواقعة كشفًا، وإلا لم تكن هناك حاجة لجعل الحوت الحقيقي علامة لمعرفة مجمع البحرين الظاهري. وإن قلنا أنهما كانا يمشيان ناظرَين إلى الحوت الظاهري، فلم يكن لنسيانهما إياه مجال. هل رأيتم في الدنيا مثلاً أن رجلاً يسافر في سيارة، ثم بعد قطع مسافة طويلة ينسى أنه يركب سيارة، ويبدأ السفر على الأقدام دون أن يدري، ثم يتذكر بعد برهة من الزمان أنه كان يسافر في سيارة؟! إذًا فما داما يمشيان ناظرَين إلى الحوت فلم يكن لهما أن يخطُوَا خطوة واحدة من دون النظر إليه، وبالتالي يستحيل أن ينسياه.

قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٥﴾

شرح الكلمات:

نَبْغِ: أصلُه نَبغِي مِن بغاه إذا طلَبه (الأقرب).

التفسير: أي أنهم سيدركون في تلك المرحلة أنهم قد أخطأوا إذ ما برحوا في سفرهم منفردين، مع أنهم قد تركوا مجمع البحرين وراءهم.

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

التفسير: اعلَمْ أن عبد الله هذا المشار إليه هنا هو سيدنا محمد ﷺ، إذ قد وُصف في القرآن المجيد بهذا اللقب في قول الله تعالى ﴿وأنه لـــمّا قامَ عبدُ الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدًا﴾(الجن: ٢٠).. أي أنه ﷺ حين يقوم للصلاة يزدحم الناس حوله.

بل يقول الصوفية إن مقام العبد هو أعلى المقامات وأرفعها، وأنه لم يبلغ درجة العبدَ الكامل إلا النبيّ الكريم ﷺ.

كما أن النبيّ ﷺ هو المقصود أيضًا في قوله تعالى ﴿آتيناه رحمةً من عندنا﴾، حيث يخاطبه الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾(الأنبياء: ١٠٨).

وهـــو ﷺ المقصـــود أيضًا في قوله تعالى ﴿علّمناه من لدنا علمًا﴾، بدليل قوله تعـــالى للرســـول ﷺ في موضع آخر ﴿وعلّمك ما لم تكن تعلَم وكان فضل الله علـــيك عظـــيمًا﴾(النساء ١١٤)، وهو المقصود أيضًا في قوله تعالى ﴿وعُلِّمتم ما لم تعلَموا أنتم ولا آباؤكم﴾(الأنعام: ٩٢).. أي قد أُوتيتم أيها المسلمون بواسطة هذا الـــنبيّ علمًا لم يؤتَه الأولون – والبديهي أن موسى وعيسى عليهما السلام مشمولان في هؤلاء الأولين – وأيضًا في قوله تعالى للنبي ﷺ ﴿وإنك لتُلَقَّى القرآنَ من لَدُنْ حكيم عليم﴾(النمل: ٧). ثم علّم الله تعالى نبيَّه ﷺ الدعاءَ لطلب زيادة العلم فقال ﴿وقُل رَبِّ زِدْني علمًا﴾.

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٧

شرح الكلمات:

رُشدًا: الرُّشدُ الاستقامةُ على طريق الحق مع تصلُّبٍ فيه (الأقرب).

التفسير: تعقد هذه الآية مقارنة لطيفة بين المقام الموسوي والمقام المحمدي حيث بيّنت أن المقام الموسوي تابع للمقام المحمدي، وأن المعارف المحمدية كشفت حقيقة أمور لم تقدِر المعارفُ الموسوية بيانها. وقد جاءت هذه المقارنة اللطيفة على شكل هذا الحوار والمصاحبة بين موسى وعبد الله هذا.

قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٨

التفسير: أرى أن مضمون هذه الآية يشير إلى قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لن تراني﴾ حيث بيّن أنه من المستحيل أن تبلغ الكمالاتُ الموسوية سموَّ الكمالات المحمدية، وأن أمة محمد أشد صبرًا وجلدًا من قوم موسى الذين عجزوا عن تحمُّل المحن والشدائد في سبيل الدين كما تحمَّلها المسلمون.

كما تشير هذه الآية إلى أن المسيحيين وإن كانوا تحمَّلوا المصاعب البدنية دهرًا

إلا أنهم عجزوا أمام الاختبارات العلمية، حتى شكا المسيح نفسه من بلادتهم الفكرية قائلاً: لا أحد أدرك مقامَه الروحي حق الإدراك. نقرأ في الإنجيل أنه في العام الأخير من سني حياته الفلسطينية قبيل حادثة الصليب سأَل المسيحُ أقربَ تلاميذه إليه بُطرُسَ: ماذا تقول الناس عني؟ فلما أجاب: أما أنا فأعتقد أنك أنت هو المسيح، فرِح جدًّا من جوابه (متى ١٦: ١٣-١٩). هذا يكشف أن الحواريّين أنفسهم ما كانوا مستعدّين ليصدّقوا أنه هو المسيح المزمع قدومه، بل كانوا يعدّونه كواحد من الأنبياء، لذلك فرِح المسيح عليه السلام من إيمان بُطرس.

كما تكشف لنا هذه الآية البونَ الشاسع بين طبيعة محمد وطبيعة موسى عليهما السلام. ففي حين نجد موسى عليه السلام يستعجل في السؤال، نجد رسول الله ﷺ يلزم الصمت التامّ حتى يكشف الله عليه كل أمر من عنده.

وهذا الفرق عينه يوجد بين أمّتَي النبيَّين. نقرأ في التوراة أن بني إسرائيل وجّهوا إلى موسى عليه السلام السؤالَ إثر السؤال. أما قوم النبيّ ﷺ فنجدهم على النقيض من ذلك تمامًا، حيث يقول الصحابة رضي الله عنهم: كنّا ننتظر بفارغ الصبر أن يأتي أعرابي فيسأل رسولَ الله ﷺ سؤالاً، فنسمع أيضًا جوابه (البخاري: العلم). وكأنهم كانوا يتحلون بالوقار والصبر وضبط النفس لدرجة تمنعهم من توجيه السؤال إليه ﷺ. وإلى ذلك أشار الله تعالى في قوله ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولَكم كما سُئل موسى من قبل﴾(البقرة: ١٠٩).. أي هل يريد بعض منكم أن يكونوا كثيري السؤال إلى نبيّهم مثل قوم موسى الذين كانوا يدفعونه إلى أن يسأل الله ﷻ عند كل صغيرة وكبيرة. ولكن الصحابة تحلَّوا بالأدب دائمًا امتثالاً لأمر الله. وأما النبيّ ﷺ فكان في كل أمر يسمع لما يوحي الله إليه، وإذا لم ينزل الوحي لم يسأل عن شيء بل تمسك بأهداب الصبر، عملاً بالتوجيه الرباني له ﴿ولا تَعجَلْ بالقرآن من قبل أن يُقضَى إليك وحيُه وقُلْ رَبِّ زِدْني علْمًا﴾(طه: ١١٥).. أي دَعْ وحيَ القرآن ينزل إليك في حينه، ولا تسأل قبل أن يوحى إليك، وادعُ ربك أن يزيدك علمًا.